محمد علي قطب

قصص القرآن

للأطفال

مكتبة القرآن
للطبع و النشر و التوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده تعالى ونستعينه ونستغْفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن « محمداً » عبده ورسوله ، جاء بالقرآن الكريم هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ؛ – صلوات الله وسلامه عليه – ؛ فَبلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصحَ الأُمّة .

وبعـد

فإن « قصص القرآن للأطفال » أسلوب جديد متميِّز ، أحببنا أن نقدمه لأطفالنا الأعزاء تيسيراً لأفهامهم ، واجتذاباً لنفوسهم ، وتربية لوجداناتهم ، وتأسِّياً بالمواعظ المْستخلصة ، وتأثّراً بالمنهجيّة القويمة ، وتجنُّباً لكُلّ انحراف أو نزوغ .

وهي فكرةٌ عمليّة في ميدان بلورة شخصيّة الطفل المسلم ، وتكوينها تكويناً جديداً ، وحمايتها ما أمكن من تيارات الإعلام المعاصر ، والهادف إلى اقتناصها في شباك الضياع ، والتّيه ، وتسريبها في مسارات التغريب .

وإن من دواعي اعتزازي وسروري أن تكون « مكتبة القرآن » – بما توفّر للقائمين على إدارتها من صفاء إيمان ونقاء يقين – أن تكون الرائدة في هذا المضمار ، وأن تأخذ على عاتقها جزءاً من مسئولية خدمة القرآن وأهله ..

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بما نكتب ونقدم ، وأن يسدّد خطانا على الصراط المستقيم ، وأن يوفقنا لما يحبُّه ويرضاه ، فإنه أكرم مسئول وخير مأمول .

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين

محمد على قطب

قابيل .. وهابيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ واتْلُ عَلَيْهم نَبأَ ابْنَيْ آدمَ بالْحقِّ إذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّل مِنْ أَحَدِهما ولم يُتَقبَّل مِنَ الآخر قال : لأَقْتُلَنَّك ؛ قال : إنّما يتقبَّل الله من المتقين . لئن بَسَطْتَ إليَّ يَدك لتَقْتُلني ما أنا بباسطٍ يديَ إليْك لأَقْتُلَكَ إنّي أخافُ الله رَبَّ العالمين . إنّي أُريدُ أنْ تَبُوءَ بإثْمي وإثْمِكَ فتكُونَ من أَصْحابِ النّارِ وذلك جزاءُ الظّالمين . فَطَوَّعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخيه فقَتَلهُ فَأَصْبَحَ من الخاسرين . فَبَعَث الله غُراباً يَبْحث في الأَرْض لِيُريَه كيْفَ يُواري سَوْأَةَ أخيه قال : يا ويْلَتىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغُراب فَأُواري سَوْأَةَ أخي فَأَصْبَحَ من النادمين ﴾

صدق الله العظيم

سورة المائدة (٢٧ - ٣١)

وقال رسُول الله ﷺ :

« ليس من نَفْس تُقْتَلُ ظُلْماً ، إلا كان على ابن آدم كِفْل من دمها ، لأنّه كان أوّل من سنّ القتْلَ » رواه البخاري ومسلم

وَسْوَسَةُ الشيطان ...

كان « آدم » – عليْه السلام – وزوجه « حوّاء » يتنقّلانِ في أنحاء الجنّة ورياضها ، ويستمتعانِ بظلالها وثمارها وعذوبة مياهها ، ولا ينكّد عليهما صَفْوَ عيشهما أيُّ مُنكِّد ، فالرِّضوان يغمرهما وعيْن الله ترعاهما .

وفي ذات يوم – بينما كانا في تطوافهما – وصلا إلى شجرةٍ لاتختلف أغصانها ولاثمارها عن غيرها من الأشجار ؛ لكنّهما كانا قد نُهيا عن الاقتراب منها أو تَذوُّق ثمارها ، اختباراً لهُما من الله تعالى على الطاعة ، وامتحاناً على الالْتزام بالأوامر واجتناب النواهي .

فَوَسْوس لهُما الشَّيْطان أَنَّ هذه الشجرة هي شجرة الخُلْد ، فإذا أكلا منها صاراَ مَلكيْن خالديْن ، لا يجرى عليهما المَوْت وأحكام الفناء ... ، لكنّهما آمتنعا عن موافقة إبليس وحاولا الارْتدادَ والهروب ، فأعاد الكرَّة وراح يُزيّن لهُما أَمْر المخالفة ويهوِّن عليهما النتائج ، ويغريهما بطيب ثمر تلك الشجرة ... حتّى وقعا في الفتْنة وأكلا من الشَّجرة ...

★ ★ ★

عندئذٍ آنكشفا ، وبَدَتْ لهُما سَوْآتُهما[1] وطفقا يخصفان[2] عليهما من وَرَقِ الجنّة ، ليُواريا السُّوء ، وليستُرا العوْرة .

وشعرا بفداحة الخطأ وعِظَم الذّنْب .

★ ★ ★

(١) عورتهما وكل ما يسيء الإنسان ظهوره للناس .

(٢) يضمان الأوراق بعضها إلى بعض لستر العورة .

.... وعقـاب الرحـمٰن

وتجلّى الله تعالى عليْهما في عتابٍ ﴿ **وناداهما ربهما ألَمْ أنهكُما عن تلكما الشجرة** ﴾[1]؟!!

فطأطأ « آدم » و « حواءُ » رأسيْهما خجلاً من الذَّنْب ، واسْتَشْفعا إليه – سُبحانَهُ – من العقاب ، بالتوْبة والإنابة ... ، ﴿ **فَتلقّى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليْه** ﴾[2] .

ثم أُمَرهما بالْهُبُوط إلى الْأَرْضِ والخروج من الجنَّة ؛ حيْث تكون الأرض لهُما ولذريّتهما مُسْتَقَراً ومتاعاً إلى حين ، حين البعْث والنُّشور ، والحساب ... للثوابِ أو العقابِ ...

كما أُنْذَرهما بالعداوةِ والمعركة مع الشيطان ، تلك الّتي بدأتْ مِنْ وقْت إضْلالهما وغوايتهما ، واستسلامهما لِلْوسْوسة ؛ وأنَّه تعالى لنْ يتركهما ونَسْلهما فريسةً لإبليس وجُنْده ، بل سَيشْملهم برحْمَة الهداية وإنارة السبيل ﴿ **فإمّا يأتينّكُمْ مِنّي هُدًى فمن اتّبع هُدَايَ فلا يضلُّ ولا يشقى** ﴾[3] .

هبط « آدم » – عليه السلام – ومعه « حواء » زوجته إلى الأرْض ، وبدءا معركة الحياة ... ، وقد تَزوَّد « آدمُ » بالكلماتِ من ربِّه فاتّخذها قواعد لانطلاقة العمارة ، ومصابيح يهتدي بها في الظُّلمات ، ويذلل بها الصِّعاب والعقبات .

---

(١) سورة الأعراف – ٢٢ .
(٢) سورة طه – ١٢٣ .
(٣) سورة البقرة – ٣٧ .

الخليَّـةُ الأولـى

وحملتْ « حوّاء » حمْلها الأوّل ، وبعد أشهرٍ وضعتْ طفلين ، ذكراً وأنثى ، فسُرَّ بهما أبواهُما أيَّ سرور ، وفرحا بهما أيّ فرح ...

وكانت الطفلةُ تبدو صورة مصغّرةً عن أُمّها « حوّاء » ، تحمل ملامحها وقسمات وجْهها ، وتتألّق جمالاً وبهاءً .

وأَغْدَقت الأُمّ على ولديْها من فيْض حنانها وعطفها ، وأوْلتْهما رعايتها وعنايتها ؛ كما راح الأب – يوفّر لأُسْرتِهِ الصَّغيرة صنوفَ العيش ، وضروب الحماية ؛ يتعامل مع الأرض ، والطبيعة ، ويتكيّف حسب الحاجاتِ والضرورة .

ومالِبثتْ « حواء » أنّ حملتْ حمْلها الثاني ، وبدأ بطنها يتكوّر على ما أُودعه الله فيه ، وقدَّره بمشيئته .

وبعْد أَشْهرٍ وضَعَتْ ...

وكان مولودان أيْضاً ، ذكر وأُنثى .. ، لقد كبر عدد الأسْرة .. ، فعظمت مسؤوليَّةُ « آدم » في السَّعْي والحماية ، وتدبير شؤون المعيشة ، كما اشتَدَّت على « حواء » وَطْأَةُ رعاية الأَطْفال ...

أســرة ســعيدة

وكان « آدم » – عليْه السلام – قد سمّىٰ بِكْرَهُ « قابيل » وسَمّىٰ المولود الثاني « هابيل » ...

ومع مرور السنين والأيّام ، وتعاقُب الليالي والأعوام ، كان الأطفال يكبرون ، ويدرجُون ثُمَّ يمشون ، ويشتدّ عَودهم وتلْتفُّ سواعدُهُم ، ويبدو « قابيل » و « هابيل » قادريْن على ممارسة أنْواعٍ من النّشاطات والرياضات ، والتصدّى لقساوة الطبيعة وتقلُّباتها ، وكذلك لِرَدّ عُدْوان السِّباع والضّواري من الحيوانات ، ولقد كانا خَيْر عوْنٍ لآدم في تأمين معاش الأُسْرة وعيْشها .

كان يلُفُّ الأُسْرة الصغيرة ، والخليَّة البشريَّةَ الأُولى ، جَوّ من التعاطف والوُدِّ والتعاوُن ، وترفرف عليها المحبَّة والألفة .

وكانت الفتاتانِ تكبرانِ أيضاً ، وتتخلَّقانِ ... ، وتُضْفي عليهما الأُنوثةُ ملامح الضَّعْف من ناحية والجاذبيّة من ناحيةٍ أُخرى ... ، فكان « قابيل » و « هابيل » يتنافسانِ على إرضائهما وتلبية حاجاتهما ، ويبذلان قصارى جهدهما في حمايتهما ، وتوفير الهناء لهما ؛ ولا يقصِّر « قابيل » و « هابيل » مع أَبَويْهما « آدم » و « حوّاء » ... ، يعملانِ ولا يملّان ، ويكْدحانِ ولا يتْعبان .

* * *

تَنَـوُّع المسْـعىٰ

ولقد كان لاختلافِ حاجاتِ الأُسرة من موارد المعيشة وأسباب الحياة أثره فى تنوّع النشاطات ، وحيثُ إنَّ الأرْض بما استوْدع الله تعالى فيها من سِرِّ العطاء ، كانت مع تقلُّباتِ الفصُول وتبدُّلها تنْضرُ حيناً وتُزْهر وتُثمر ، أو تستريح وتتهيّأ حيناً آخر ...

لذا ... فإنَّ « قابيل » قد آستهْوتْهُ وأَلِفَها ، وأَقْبَلَ على التعامُل معها ، يشقّها ويَسْتَنْبتُها ، ومن ثَمَّ يجني من خَيْراتها وثمارها ، ويكفي نَفْسَهُ وأهْلَهُ المؤونة ؛ من فَصْلٍ إلى فَصْل ، ومن مَوْسمٍ إلى مَوْسم ؛ وهكذا تعلَّم الفلاحة والزراعة .

* * *

أمّا « هابيلُ » فَقَدِ آتّخذ سبيلاً آخر ...

لقد وَجَدَ في أَلْبانِ الماشيةِ وأصوافها وجلودها ولحومها ... أكثر من مصْدر خَيْرٍ وعطاء ؛ وهي تُلبّي أَشْتَاتاً من ضرورات الحياة وحاجات العيْش ..

فعوَّل عليْها يَرْعاها ، ويُسمِّنها .. ، وقد يبيتُ إلى جانبها في حظائرها حمايةً لها ومحافظة عليْها ؛

وهاهي ذى تتكاثر ... ، تحْمل وتَضَع ... ، فإذا بأَعْدادها تزيد ، وإذا بالخيْر يتدفّق ، وبالنّعيم يعمّ الأُسرة .

نَـزْغَةُ الشـيطان

وكانت الفتاة البكر ، التى وُلدتْ توْأماً لـ « قابيل » أَجْمل من أُخْتها توْأم « هابيل » ، وقد بلغتْ مرحلة الشباب والفتوَّة والنُّضُوج ، فكانت تميل بقلبها وعواطفها إلى « هابيل » وهُوَ يُبادلها نَفْس الشعور ... ، وكان ذلك إلهامٌ من الله تعالى وحكمة منه سُبحانه ... ،

وكم حاوَلَ « قابيل » أَنْ يشدَّها إليْه ، أو يمتلك زمام عواطفها ، أو يستأْثر بقلْبها ... لكنها لم تتأثَّر ولم تنفعل وظَلَّ حَبْل الوُدِّ موْصولاً بيْن القلبيْن النابضيْن بالْحُبّ :قلبها، وقلب « هابيل » .

وراح الشيْطانُ يبْذر بذور الحقْد والحسد في نَفْسِ « قابيل » ..، فكما أَتْعس « آدم » وأشقاهُ بالخروج من الجنّة ، وأغواهُ بعصيانِ أمْر الله ، مِنْ قَبْل ... ، كذلك يفْعل اليوْم ... ، لِأَنَّه لا يُريدُ لـ « آدم » وذرّيتَهُ أَنْ ينعموا بالرّضى والرّضْوان .

وهل يَنْسى « إبليس – الشّيْطان » عداوته الأزليّة لآدم !! يوْم أمره الله بالسُّجُود فأَبى وآستكْبَرَ ، وتوعَّد وأَنْذر ، فلما سنحتْ له فرْصة الانتقام لم يَتأخّر ، ثم وسْوَس لآدم فأَغواه ، وأَوْقعه في جُبِّ العصْيان ؛ وكان الطَّرْدُ من الْجِنان ...

وها هو ذا اليوْم يتحفّز من جديدٍ ، كيْ لا يترك ابن آدم ينْعم بالطاعة والاستقامة .

وبَدَتِ البغْضاءُ على لسانِ « قابيل » وتصرُّفاته ، وأَخَذَ يُمْعِنُ في العداوة لِأخيه .

القُـرْبانُ إلى الله تعالـى

وأراد « آدمُ » – عليه السلام – أَنْ يقطع دابر الْفِتْنة بيْن ولديْه ، ويحكِّم الله تعالى في شأنهما ؛ فَطَلَب إليْهما أَنْ يقرِّب كُلّ منهما قُرْباناً إلى الخالق – سبحانه – ، فَمَنْ قُبِلَ قربانُه فاز بمطلوبِهِ وتحقَّقتْ رغبتُهُ .

وكان « قابيلُ » – كما سبق وعرفْتَ – مُزارعاً ، فَجَمَع بعض النّباتاتِ ووضعها على باب مأواه ... ، أما « هابيلُ » فقد ذَبَح واحدةً من مواشيه وجعل لحْمها عُرْضَةً للكواسر من الطيْر ، والسِّباع من الحيوان .

* * *

ومع إطْلالة الصَّباح ، وبُزوغ الشَّمْس ، كان قُرْبانُ « هابيل » قَدْ وَقَعَ موقع الرضى والقبول ، ونَفَدَ فلم يَبْق منه شيْء ؛ أما حشائش « قابيل » ونباتاتُهُ فقد ذبلتْ وزَوَتْ ، ورُدَّتْ عليْه فلم تُقْبل منه .

﴿ إنّما يتقبَّل الله مِنَ المتّقين ﴾ .

* * *

إبْليس مَـرَّة ثانيـة

صمَّم « إبليس » على متابعة شَوْط النزاع والخصام بيْن الأخويْن ، وليُرسِّخ العداوة والبغضاء بين بني « آدم » .

وإن له لأساليب ووسائل .. ، فَأجَّج نار الحقْدِ في قلْب « قابيل » وصَوَّر له وقائع العلاقات بَيْنه وبيْن أهْلِهِ صُوراً شَتّى ... ، كُلُّها مَبْعثها الكراهية ، فأضْمَرَ الشَّرَّ ونوى الْغَدْر ...

ولقد هيّأ له « إبليس » أنَّ أخاهُ « هابيل » هو العَثْرة التي تقف في وَجْهه ، وتحولُ دون تحقيق أمانيه ورغباته ، فلابُدَّ من إزاحتها ، والتخلُّص منها ....

الشَّـــحْناء ...

وأطْلق « قابيلُ » تهديداتِهِ لأخيه « هابيل » ...

وكأن الشيطان « إبليس » هو الذي يتكلَّم ؛

قال « قابيل » لَأقْتُلَنَّك ... ، وأقْضي عليْك ... فَأنْتَ التي تُنَغِّص عليَّ هنائي ، وتنكّد عليَّ عَيْشي ، ... ولسوف أعيش العُمْر تعيساً طالما أراك تتمتّع بِتَوْأمي .. ، لقد قُبل قُرْبانُك ورُفِضَ قُرْباني ...

فقال « هابيل » برفْقٍ وهدوءٍ ويقين :

﴿ إنَّما يتقبَّل الله من المتَّقينَ ﴾ .

فاشْتَدَّتْ ثورة « قابيل » وهياجُه ، واحْمَرَّتْ عيناهُ من الغضب والغيْظِ ، وقال :

– لَأَفْعَلَنَّ ...

فَرَدَّ « هابيل » :

– ﴿ لئِنْ بَسَطْتَ إليَّ يَدَك لِتَقْتُلني ماأنا بباسطٍ يدي إليْك لِأَقْتُلك إنّي أخافُ الله رَبَّ العالمين ﴾

﴿ إنّي أُريدُ أن تَبُوءَ بإثْمي وإثْمِك فتكونَ من أصحابِ النار وذلك جزاءُ الظالمين ﴾

ولقد كان في رَدِّ « هابيل » شيْء من التّحذير فلعلَّ ضمير « قابيل » يستيقظ ، ويَنْأى عن الإصغاء للشيطان ، ويستفيق من تَخْديره ...

﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ ، فَخفْهُ أَنْت أيضاً ... ، فلا تكون ﴿ من أصحاب النّار وذلك جزاءُ الظالمين ﴾

القتْل والخُسْران

لكن الشَّيْطان – إبليس – ، كان قد عشّش في نَفْس « قابيل » وآستحْكَمَ منها ، وَقَعَدَ مَقْعَدَهُ ... ، فَأَصَمَّ أذُنَيْه عن السَّمْع ، وغشّى عَيْنَيْه عن الرؤية .

ثم حَرَّكه في جوارحه وأطْرافه ، فقام إلى أخيه في ساعةِ خلْوةٍ ، فأطْبق عليْه غَدْراً ، ولم يُفلِتْه من بيْن يديْه إلاّ جثةً هامدة ... قد غاصَتْ في دمائها ...

ووقَفَ غير بعيدٍ يَنْظُر إلى ماقدَّمت يداهُ وفعلتْ ... ، فاضطرمت نَفْسُهُ وهاج فؤادُهُ ، وأحسَّ بوْطأة الجناية على ذاتِهِ ووجدانِهِ ، وَشَعَر بفقدانِ الأخ والْعَضُد ﴿ **فَأَصْبَحَ من الخاسرين** ﴾ ؛

* * *

وبدأَتْ نَفْسُهُ اللَّوّامة تَعْمل عملها ؛ ووقع في شباكِ الْأسى والْحُزْنِ ؛ والحيْرة والتردُّد ... ؛ وفَقَد كُلَّ ذَرَّةٍ من التَّفْكير .

العَجْـزُ والنَّـدم

ثم قعد « قابيل » على صَخْرةٍ وقد أثقلتْهُ الهموم ، ولم تَقْدر قدماهُ على حَمْلِهِ ...

وعلى قيْد خطواتٍ مِنْهُ حَطّ غُرابٌ ...

فراح ينكت الْأَرْض بِمنْقارِهِ ومخالبِهِ حتى حَفَر حُفْرةً أَوْدعها بعض ماكان يَحمْل ؛ ثمَّ أهال التُّرابَ ثانيةً في الْحُفْرة ، وطار في الجوِّ محلِّقاً . وكان الغُرابُ بَعْثاً من الله تعالى ، أَرْسَلَهُ ليُعلِّم « قابيل » كيْف يواري جُثَّةَ أخيه القتيل « هابيل » ...

طيْر يُعلِّم الإنسان ؟!! هذه ولا شَكَّ حكمةٌ بالغة ... ، لها أكثر من مدلول ومفهوم ، ويكفي فيها أنَّ الله تعالى بيده وَحْدَهُ أُمور الْخلْق ، بشراً كانوا أم حيواناً ؛ أم طيرا ، أم جماداً أم نباتا ...

لقد شُدَّت عيون « قابيل » إلى الغراب وعَمَلِهِ ، وكذلك شُدَّ تفكيره وآهتمامُه ... ، فلّما رأى مارأى ، قال متحسِّراً نادماً :

﴿ ياوَيْلتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أكونَ مثْل هذا الْغُراب فَأُواري سَوْأَةَ أخي ... فَأَصْبَحَ من النّادمين ﴾

ثم قام إلى عَمَلِهِ يجرُّ ساقيه ، وتأكُلُ قَلْبَهُ الحسرةُ ... ، ويذرف دُمُوع النَّدم .

ولكن أنّي له أَنْ يَطَّهَّر أَوْ يستغْفر ، فَقَدْ نَهَرَ الدَّمَ الإنساني الأوّل على مَذْبَحِ الشهوة والهوى ، وأطاع الشيْطان وعصى الله .

* * *

موسى والعبد الصالح

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ وإذْ قال مُوسىٰ لِفتاهُ لا أَبْرحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبا . فلمّا بَلَغا مَجْمَعَ بينهما نَسِيا حُوتَهُما فاتَّخَذَ سبيلَهُ في الْبَحْر سَرَبا . فلمّا جاوزا قال لفتاهُ آتنا غداءَنا لقد لقينا مِنْ سَفَرنا هذا نَصَبا . قال أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنا إلى الصَّخْرةِ فإنّي نسيتُ الحُوتَ ومأأنسانيهُ إلاّ الشيطانُ أَنْ أَذْكُرَه واتَّخَذَ سبيلَهُ في الْبَحْر عَجَبا . قال : ذٰلِكَ ماكُنَّا نَبْغ فارْتَدّا على آثارِهما قَصَصا . فوجدا عَبْداً مِنْ عبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً من عِنْدنا وعَلَّمْناهُ من لدُنّا عِلْما . قال له موسى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشدا . قال إنَّك لَنْ تَسْتطيع مَعيَ صَبْرا . وكَيْفَ تَصْبِرُ على مالمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرا . قال : سَتَجِدُني إنّ شاء الله صابراً ولا أَعْصي لكَ أَمْرا . قال فإن اتَّبَعْتني فلا تَسْأَلْني عَنْ شيءٍ حتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْرا . فانْطلقا حتى إذا رَكِبا في السفينةِ خَرَقها قال : أَخَرَقْتها لتُغرق أَهْلَها لَقَدْ جئت شيئاً إمْرا . قال : أَلَمْ أَقُلْ إنَّكَ لنْ تستطيع مَعِيَ صَبْرا . قال : لا تُؤاخذْني بما نسيت ولا تُرْهقْني مِنْ أَمْري عُسْرا . فانْطَلَقا حتى إذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قال : أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغَيْر نَفْسٍ

لقدْ جِئْتَ شيْئاً نُكْرا . قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرا . قال : إنْ سأَلْتُكَ عَنْ شيءٍ بَعْدها فلا تُصاحِبْني قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنّي عُذْرا . فانْطلقا حتى إذا أَتيا أَهْل قَرْيةٍ آسْتطْعما أَهْلها فَأَبَوْا أَنْ يُضيِّفوهُما فَوجَدا فيها جداراً يُريدُ أَنْ يَنْقضَّ فأَقامه قال : لَوْ شئْتَ لا تَّخَذْت عليْه أَجْرا . قال : هذا فِراقُ بَيْني وبَيْنِكَ سأُنَبِّئُكَ بِتَأْويل مالمْ تَسْتطِعْ عليه صَبْرا . أمّا السَّفينةُ فكانَتْ لمساكين يَعْملونَ في الْبَحْر فَأَرَدْتُ أَنْ أَعيبَهَا وكانَ وراءَهُم مَلِك يأْخُذُ كُلَّ سَفينَةٍ غَصْبا . وأما الغُلام فكان أَبَواهُ مؤمنيْن فخشينا أَنْ يُرْهقَهُما طُغْياناً وكُفْرا . فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدلهما ربُّهُما خيْراً مِنْه زكاةً وَأَقْرب رُحْما . وأمّا الْجِدار فكان لغُلامَيْن يتيمَيْن في المدينة وكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لهُما وكانَ أَبُوهُما صالحاً فأراد ربُّكَ أَنْ يبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرجا كَنْزهُما رَحْمةً مِنْ ربِّكَ وما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْري ذلك تأْويلُ مالمْ تَسْطِعْ عليه صَبْرا ﴾

سورة الكهف ، الآية (٦٠ إلى ٨٢)

أَعْـلم النّـاس !!؟

وقف « موسى » – عليه السلام – خطيباً في بني إسرائيل يحضُّهُم على الإيمان ، ويحثهم على الطاعة ، ويدعوهم إلى التمسُّك بشرع الله لهم ...

ولقد فَتَح الله تعالى لهُ فُتُوحاً عظيمةً في الوعْظِ والإرشاد ، وضَرْب الأمثال ، فآستحْوذ على مشاعر الناس وعُقُولهم ، وشَدَّهُمْ إليْه ، وأَنْصتوا له مُعْجبين .

فلمّا انتهى ، سأله بَعْضُهم وقد فُتِنُوا بِعِلْمِهِ :

– من أَعْلم الناس يا موسى ؟!

فقال على الفوْر :

– أنـا ...

وكانت هذه الكلمة : (الأنا) سببا في عتاب الله له عليها فعاتبه الله تعالى عليْها ، وأَفْهَمَهُ أَنَّه كان يجب أَنْ يردَّ ذلك إلى عِلم الله سبحانه وفَضْله ، لأنّه مَصْدر كُلّ شَيْء .

ثم أَوْحى إليه : أن عَبْداً من عبادي يُقيم في « مَجْمع البحريْن » قد آتيْتهُ عِلْما من لدُنِّي ، فآقْصدْهُ ؛ ولسوْف ترى ضحالة عِلْمك وقلّته إزاء ما وَهَبْته لهذا العبْد .

ولقد آسْتَشْعر « موسى » – عليه السلام
لقوْمه ، ونِدِم على مافرَّط ، ثُمَّ عَزَمَ على إتْيانِ العبْد الصالح استجابة لأمْر الله تعالى ، وتكفيراً عن الذَّنْب ، واكتساباً للمعرفة .

* * *

موســى وفتــاهُ

ولكيْ يَستدلّ « موسى » – عليه السلام – على مقام العبْد الصالح وتحديد مكانه سأل الله تعالى عن علامة تهديه ، أو أمارة ترشده ...

فقيل له : احْمل مَعَكَ سمكةً كبيرةً في مكْتَل[1] ، وحيثُ تَفْقد السمكة وتضيّعها فهناك نهاية المقصد .

وفعل « موسى » ماأرشده إليه ربُّه ، فوضع حوتاً[2] في مكْتَلِهِ ، وآستصحب معه فتىً من فتيانِهِ يُدْعى « يُوشع بن نون » وكان مقرَّباً إليه ، محبّباً لديْه ؛ أثيراً عنده .

وآنطلق باتجاه « مَجْمَع البحرين » عند الطَّرَف الغربيّ الجنوبي من برِّيَّةِ « سيْناء » ؛

كان الطريق وعراً شاقاً ، تعترض السائر فيه كُثبان[3] الرّمال ،

---

(١) المكتل : القفة .
(٢) الحوت : السمكة .
(٣) جميع كثيب : وهو الهضبة الرملية .

وتلْفحه حرارة الشمس اللاهبة ، وتمْتد المسافات شاسعةً .

فنال التعب من « يُوشع » ، وأَرْهَقه الجهْد ، فذكر ذلك لـ « موسى » – عليْه السلام – ؛ وكأنَّه كان يطلب إليْه العوْدة ، وصرْف النَّظر عن متابعة السَّعْي ... .

لكن « موسى » النبيَّ لا ينكص على عقبيْه ، فلابُدَّ من مُواصلة السَّيْر لبلوغ الهدف وتحقيق الغاية ، تكْفيراً عن الذنْب والتزاماً بهدى الله تعالى .

فقال لفتاه : لن يصرفنى جهْد أو تعب عن الوصول إلى مَجْمع البحريْن ، ولو اقتضى ذلك سنين عددا .

﴿ وإذْ قال موسى لفتاهُ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحريْن أوْ أَمْضيَ حُقُبا ﴾

* * *

عِنْـد الصَّخـرة

وبدأت نسماتُ البحر الرَّطْبة تهبُّ ناعمةً ، فتخفّف مابموسى وفتاهُ من وطأةِ القيظ ، فلمّا قاربا الشاطيء ، عند مَجْمع البحْرين جلسا ليستريحا قليلاً ، واستظلاّ بصخرةٍ كبيرة .

ثم غلبَ النُّعاسُ جَفنىْ « موسى » – عليه السلام – فآستسلم للقيلولة ، لكنّ « يوشع » شعر بآستعادة بعض النّشاط ، وذهب عنه الْكَلَلُ ، فجلس ينظر هنا وهناك ، ويَسْتَطْلع مختلف المشاهد ...

وفي غفلةٍ منه أخذ الحوتُ سبيله إلى البحر سَرَباً مع موْجةٍ

قادمة تتكسّر على الشاطيء الرَّمْلي ...

فأجْفلَ وانتبه ... ، ولم يستطع أن يفعل شَيْئاً ؛ وعقدت لسانه الدَّهشة ، وبقي في حَيْرةٍ وعجب !!!

النِّسْيان من الشَّيْطان

وأفاق « موسى » – عليه السلام – من إغْفاءته ، وقد استعادَ نشاطه ، فقام واقفاً وطلب إلى رفيق رحلته « يوشع » أنْ يُتابعا مُضيَّهما إلى مقْصدهما ، فاستجاب « يُوشَعُ » وهُوَ لايزال في دهشةٍ وذهول ... ، ولم ينطق لسانُه بكلمة ...

فلمّا قطعا شوْطاً طويلاً ، وأغرقا في البُعْدِ عن الصَّخْرة ، وَجَدا ظِلاً ظليلاً لشجرةٍ وارفة ، فاستحْسنَ « موسى » – عليه السلام – أنْ يجلِسا تحتها لتناول الغداء ، و ﴿ **قال لِفتاه آتنا غَداءنَا لقد لقينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَبا** ﴾

عندئذٍ – فقط – تنبَّه « يوشَعُ » من ذهوله ، وانزاحتْ عن بصرِهِ وبصيرته غشاوة الشيطان ؛ وتذكّر من أمر الحوتِ ماكان وجرى ، فقال لـ « موسى » :

– لقد تذكّرتُ الآن ياسيِّدي ماحدث من عجيبةٍ عند الصخرة ... ، لقد نسيتُ أنْ أتَنبَّه للحوت في المكتل ، وإذا بِهِ يقفزُ منه بقُدْرةِ قادرٍ ويتسلَّل مع الموْجِ إلى عُرْض الْبَحْر ؛ ومامن شَكَّ أنّ الشَّيْطان هو الّذي أنْساني ذلك ؛ وعَقَد لساني لروعةِ وعَجَبِ مارأيْت وعاينْت ...

﴿ أرأيتَ إذْ أَوَيْنا إلى الصَّخْرةِ فإني نسيتُ الحوت ومأأنسانيه إلاّ الشيطانُ أنْ أَذْكُره واتَّخذ سَبِيلَهُ في الْبَحْر عجبا ﴾

العــوْدة

قال « موسى » – عليه السلام – غَفَرَ الله لك وسامحك ؛ فقد كان ذلك مَقْصدنا وغايتنا ، وآية وَعْدنا ؛ فلابُدَّ من العوْدة ؛ هيّا بنا ...

ولم يتناولا طعاماً ولا شراباً ، وبادرا من فوْرهما آرْتداداً إلى الصَّخرة ، وَجَدّا في الطّلب والسَّيْر .

﴿ قال : ذٰلك ماكُنّا نَبْغِ فارْتَدّا على آثارهما قصَصَا ﴾

وكانا في عَوْدتهما يتتبّعانِ آثار أقدامهما ومواطىء نعالهما حتى لايُعمى عليهما المكان ؛ ولا يضلاّ الطريق .

العبْــدُ الصــالح

ما إن بَلَغَ « موسى » وفتاهُ الصَّخرة حتى وَجَدا عندها إنساناً ، مهيبَ المنظر ، يضيء وَجْهُهُ إشْراقاً ، وتشِعُّ عيناهُ بالتقوى ، وتكسوهُ سيماءُ الصَّلاح ...

فتعرَّفا إليْه وعرَّفهما بِنَفْسه ..

إنَّهُ عَبْد من عباد الله ملأ الباري قلْبه رحمة ، وآتاهُ من لدُنْه عِلْماً ، فهو يَمْضي في مسارب الحياة ومع الناس على هُدىً من هذا العطاء

﴿ فَوَجدا عَبْداً من عبادنا آتيْناهُ رحْمَةً من عِنْدنا وعلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْما ﴾

فتاقَتْ نَفْس « موسى » – عليه السَّلام – إلى مصاحبة هذا العبْد الصالح ومرافقته ليتعلَّم مِنْه ما قصَّر هُوَ عنه ، وليستزيد من المعرفة الحقّة ، فطلب إليْه ذلك ،

فقال له العبْد الصالح :

– يا « موسى » إن مصاحَبَتي للتعلُّم والاكتساب تتطلّب طاقةً كبيرةً من الصَّبْر ؛ فوق احتمالك وقُدرتك ... ، ولا تستطيعُها أنْت ، إذْ كيْف بإمكانك أن تصْبِر على أُمورٍ تفترض الخبرة والتَّجْربة الطويلتيْن ، أو الممارسة على الأقل ... خصوصاً وأنَّك سترى من مقاييس المعرفة وموازين العلْم مالا يفقهه البشر ، لأنهم يرَوْن الظاهر ولا يدركون الحكمة الخفيّة ؛ والإنسان – كما تعرف – خُلِق عجولا ... فكيْف لَكَ أنْ تصاحبَني !!؟

* * *

شَرْطُ المصاحَبَةِ

لم يسكتْ « موسى » على هذا الصَّدِّ ، بل أرْدف يقول :

﴿ سَتَجدُني إنْ شاء الله صابراً ولا أعْصي لَكَ أمْرا ﴾

فَرَبَط صَبْرَهُ على طلب العلْم من العبْد الصالح بمشيئة الله تعالى ، ثم تعهَّدَ مُشْترطاً على نَفْسِهِ أنْ لايعصي أيّ أَمْرٍ يتلقّاه ويصدر إلَيْه ، مهما كان فيه من المشقّة والغموض ...

فنظر إليه العبْد الصالح مليّا ، فلمح في عينيْه ضَعْف الرجاء وَصِدْق الطّلَب ، فَحَنّ له ، وعطف عليْه ، ولكنَّه أَضَافَ شَرْطاً آخر فوق الصَّبْر ؛ فقال :

– وأشترط عليك يا « موسى » أَنْ لاتُكْثر من الاستفسار والتّساؤل ، حتى نستوْفي وقْتنا ، ثمَّ لَكَ عليَّ بعد ذلك أَنْ أوضّح لك ماستغْلق فهمه وصعُب إدراكه ...

فَقَبِل « موسى » ؛ وآنطلقا ...

﴿ قال لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً قال : إنّك لن تستطيع معي صبْرا . وكيْف تَصْبرُ على مالم تُحِطْ بِهِ خُبْرا . قال : ستجدُني إن شاءَ الله صابراً ولا أَعْصي لَكَ أَمْرا . قال : فإن آتَّبَعْتَني فلا تسألْني عن شيْءٍ حتى أُحْدِث لَكَ مِنه ذِكْرا ﴾

الرِّحْلَةُ في محيط الْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ ...

وبَيْنا « موسى » والعبْد الصالح ، و « يوشع بن نونٍ » على الشاطىء عند الصَّخْرةِ ، مرَّتْ بهم سفينة تَمخُرُ عُباب الْيَمِّ ؛ فأشار العبْد الصّالِحُ لرُبّانها ... فمال إلَيْهم وسألَهُمْ عن حاجتهم ؛ فقال العبْد الصالح : نريد أَنْ تنقلنا معك إلى شاطىء البرِّ الثاني ...

فَرَحَّبَ بِهِم ، وأَكْرَمَ نُزُلَهُم ، إذْ كانت لَهُ مع العبْد الصالح مَعْرفة ، وله بِهِ صِلَةٌ ؛ ولم يأْخُذ أُجرا .

وسارتْ السَّفينة تشقُّ الماء بَحيْزومها[1] ، وشراعُها تُدَغْدِغُه هبّاتُ الهواء ، وبينما « موسى » والعبْد الصالح يتحادثان جالسيْن عند أَحَد جوانبها ، شاهدا عصفوراً طائراً قد هوى على صفحة الماء فَنَقَرَ نَقْرةً ثُمَّ وقف على حافة المرْكب ؛ فقال العبْد الصالح :

– ياموسى إنَّ عِلْمي وعلمك ماهُوَ إلا كَنَقْرةِ هذا الطائر من الماء ، إلى جنْب عِلْم الله تعالى .

قال هذا القوْل ، لِيُمهِّد لِـ« موسى » سبيل الدخول إلى مؤشِّراتِ العلْم التي سوْف يراها ويُباشرها ، فيتواضَعَ بعد ذلك ، ولا يَدَّعي العلْم أبدا ...

وكأنه – يابنيَ العزيز – يقول له : يا « موسى » كيْف أَخطأْتَ وقُلْتَ لِقَوْمك إنّك أَعْلم الناس ؛ فلسوْف ترى مايَعْجز عقْلك عنه ، ألغازاً وأحاجيَ[2] ؛ وعلى العالِمِ – حقاً – أَنْ يتأدَّب مع الله فلا يدَّعي ، ويتواضع مع الخلْق فلا يَغْتَرْ ...

* * *

---

(١) الحيزوم : مقدمة السفينة .

(٢) مفردها : أحْجية ، وهى اللغز (الفُزورة) .

أَوَّلُ الـدُّروس

ولماّ قارَبَ العبْد الصالح و « موسى » من مكانِ نزولهما ، عَمَدَ العبْد الصَّالح إلى قَدُومٍ وراح يعالج به لَوْحاً من ألواح السفينة حتى نَزَعَهُ من مكانِهِ ، وبدأ الماءُ يتدفّق إلى قلْب السفينة ، التي أصبحت قاب قَوْسيْن أَوْ أدنى من الشاطىء ...

وذلك بَيْنَ دَهْشةِ « موسى » وتعجُّبه ؛ ولم يتمالَكْ أَنْ قال :

– كيف تفعل هذا الأذى ؛ وتُلْحق الضَّرر بأُناسٍ أَكْرمونا ثم حملونا من غَيْر أَجْر ؟!! إنَّك لتأْتي مُنْكراً من الفعل !!!

فالتفت إلَيْهِ العبْد الصالح وقال :

– لقد أنذرتك يا موسى من قبل ، وقلت لك بأَنَّك لن تستطيع صَبْراً على ما سوْف ترى ؛ ولقد عاهدتني على ذلك ؛ فأَيْن التزامك ؟ وأَيْن وفاؤك ؟

فقال « موسى » مَعْتذراً بالنِّسيان :

– لاتؤاخذني ياسيدي ؛ فلقد غلب عليَّ النِّسيان ، وأَرْجُو أَنْ لا تقهرني وتُرْهقني بأُمُور مِنَ الْعِلْم لا طاقة لي بها ، ولاقدرة لي عليها .

فاحتملها العبْد الصالح – وغفرها لـ « موسى » ، ثم نزلا عند الشاطي ، وآتجها ناحية قريةٍ ساحليَّةٍ .

الـدَّرْس الثانـي

ولمّا آقتربا وجدا طائفة من الأوْلاد يَلْعبُون ويتراكضون ، ويمرحُون ويُقَهْقهون ، فاقترب العبْد الصالح من أَحَدِهم ، وأمسكه ، ثم جَذَبَهُ إليه جذبةً قويَّةً انخلع لها قلْبُ الغلام ؛ وكذلك الأطفال الذين راحوا يتراكضون فارّين .

ثُمَّ وضع العبْد الصالح كلتى يديْه حوْل عُنُق الغلام وشَدَّ ، ولم يَتْركْهُ إلا جُثَّةً هامدة .

وَلَمْ يطق « موسى » أَنْ يسكُت !! وكيْف يسكت على جريمةٍ تُرْتكبُ أمام عينيه ؟ فقال مُحْتَدّاً غاضباً : كيْف تقتُل نفساً بريئةً طاهرة من غَيْر ذَنبٍ جَنَتْهُ ؟

فَنَظَر العبْد الصالح إلى « موسى » نظرة عتابٍ ، مع ابتسامةٍ ساخرة وقال :

– ماحيلتي مَعَكَ وقد أَعْلمتُكَ من قَبْل أنك لن تستطيع معي صَبْرا !!؟

فَأَطرق « موسى » قليلاً ثُمَّ قال :

– لن أسألك عن شيْء بعد هذا أَبدا ، ولئن فعلتُ فلا تُصاحبْني ؛ قد بلغت من لدُني عُذْرا .

الـدَّرْس الثـالث

ومضيا بآتجاه القرية ، وكان الجوع قد نال منهما ، فَسَأَلَ العبْد الصالح بَعْضَ أهل البيوتاتِ عن طعام يسدُّ الرَّمق ، إلاّ أَنَّه كان يجد من الجميع صدوداً وجفاءً ..

فخرجا منها كما دخلا ، وفي إحدى ضواحيها مرّا ببُستانٍ قد وَقَع بعض حائطه ، فشمَّر العبْد الصالح عن ساعديْه وراح يُعيد الحجارة المتداعية إلى مواضعها ، ويرصُّها فوق بعضها ، حتى أقامه كما كان ...

كُلُّ ذلك و « موسى » في ذُهُولٍ وعجب ، ولم يستطع السُّكوت ؛ فقال : لو أردْت ياسيدي لَنِلْتَ على مافعلت أَجْراً .

ولما لم يُطِقْ « موسى » سكوتاً وصَبْراً ، كذلك العبْد الصالح ، فلم يعد يستطيع تَحمُّل ظواهر علوم الْبَشَر ، وسطحيَّة تفكيرهم ، ومقاييس وموازين أعمالهم وتَصرُّفاتهم .

فقال لـ « موسى » الذي أَنذره بالافتراق : يا « موسى » ... هذا حدُّ المصاحبة ، وهذه نهايةُ المرافقة ، فلكُلٍّ مِنّا طريقه وسبيله ؛ ولن أَتْركك تمضي هكذا دون أَنْ أُنبئك بتأْويل وتفسير مالم تُطِقْ عليه صَبْرا ؛ ولِتَعْلَم كم هي عُلُوم الناسِ من الضّحالة والضآلة ؛

الْعِـلْمُ الحـقّ

قال العبْد الصالح :

– أما السفينة التي خرقْتُها ، وقد وصلتْ بنا إلى الشاطىء ، فقد كانت لجماعة من الناس مساكين هي مصدر رزقهم ومعاشهم ، فأَرَدْتُ أَنْ أعيبها وأفْسد صلاحيتها للعمل حتى لا يأخذها منهم ملكُ البلاد الطاغية ، الذي يُصادر كُلَّ مَرْكِبٍ ومركوب ؛ ويستولي على مال الناس ومتاعهم غَصْباً وقَهْرا ...

– وأما الغُلام فقد كان مولوداً لأَبَوَيْنِ صالحيْن مُؤْمنيْن ، وكان ينتظر مِنْه أن يرهقهما ويشقيهما بكُفْرِهِ وانحرافه وسوءِ سلوكه ، فأراد ربُّك سبحانه وتعالى أَنْ يعوّض عليْهما خيْراً من هذا الولد ، ولداً آخر عنوان طهارةٍ في الفكر والعمل ، ورحمةٍ في القلْب ... ومحبَّةٍ وطاعة .

وأمّا الحائط الذي سوَّيْتُه ، فقد كان مِلْكاً لولدين يتيميْن من أَهْل الْبَلَد ، وكان تحت الجدار كنْزٌ لهما ؛ وكان والدهما رجلاً صالحاً ، فأراد الله تعالى أَنْ يشبّا ويكبرا ثم يستخْرجا هذا الكنْز .

وأخيراً – يا موسى – ، اعْلَم أَنَّ كُلَّ ذلك التصرُّف إنَّما كان بأَمْرِ الله تعالى وعِلْمه ، وليس لي فيه يدٌ إلا التّنفيذ .

غفر الله لك يا أخي ؛ والسلام عليْك .

قال هذا .. ، ثم مضى في سبيله ؛ وعاد « موسى » أدراجه من حَيْث أتى ، وآستفاد دَرْساً عظيماً من مصاحبة الرَّجُل الصالح[1] ؛

وَصَدَق الله العظيم إذ يقول :

﴿ وما أُوتيتُم من الْعِلْمِ إلاّ قليلا ﴾

* * *

(١) أكثر المفسرين على أنه (الخضر) عليه السلام والنص القرآني يطلق عليه (العبد الصالح) ونحن نلتزمه .

أصحاب الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ والرَّقِيمِ كانوا من آياتِنا عَجَبا . إذْ أوى الفتْيَةُ إلى الْكَهف فقالوا رَبَّنا آتنا مِنْ لدُنْكَ رَحمَةً وهَيِّىءْ لنا مِنْ أمْرنا رشدا . فَضَرَبْنا على آذانِهِم في الْكَهْف سنينَ عَدَدا . ثُم بعثناهُم لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصىٰ لما لَبِثوا أَمَدا . نَحْنُ نَقُصُّ عليْكَ نَبَأهم بالحق إنَّهُم فِتْيَة آمنوا بِرَبِّهم وزِدْناهُم هُدى . وَرَبَطْنا على قلوبِهم إذْ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمٰواتِ والأرْض لَنْ نَدْعُوَ من دونِهِ إلهاً لقَدْ قُلْنا إذاً شَطَطا . هؤلاءِ قومنا اتَّخذوا من دونِهِ آلهةً لوْلا يأْتونَ عَلَيْهم بُسلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّن افترى على الله كَذِبا . وإذ اعْتَزَلْتُمُوهُم ومايعبدُونَ إلاّ الله فَأْووا إلى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لكُم ربُّكُم مِنْ رَحْمتِهِ ويُهيِّءْ لكُم مِنْ أمْرِكُم مِرْفقا . وترى الشمس إذا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عن كَهْفِهِم ذاتَ اليمين وإذا غَرَبَتْ تقْرِضُهُم ذاتَ الشمالِ وهُمْ في فَجْوةٍ منه ذلك من آياتِ الله مَنْ يهْدِ الله فَهُو المهتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لهُ وليّاً مُرْشدا . وتَحْسَبُهُم أيْقاظاً وهُمْ رُقُود ونُقَلِّبُهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ وكَلْبُهُم باسِطٌ ذارعيْه بالوصيد لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهم لَوَلَّيْت مِنْهُم فِرارا ولَمُلِئْت مِنْهم رُعبا . وكذلك بعثناهُم ليتساءَلوا بَيْنَهُم قال قائل مِنْهُم كَمْ لَبِثْتم قالوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالوا ربُّكُم أعْلمُ بما لَبِثْتم فَابْعَثُوا أَحَدكَم بِوَرِقِكُم هذه إلى المدينة فَلْيَنْظُر أيُّها أزكى طعاماً فَلْيأْتِكُم

بِرِزْقٍ مِنْه وَلْيَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بِكُم أَحَدا . إِنَّهُم إن يَظْهروا عَلَيْكُم يَرْجُمُوكُم أَوْ يُعيدوكُم في مِلّتِهِم وَلَنْ تُفْلِحُوا إذاً أَبَدا . وكذلك أَعْثَرْنا عَلَيْهِم لِيَعْلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ السّاعَةَ لا رَيْبَ فيها إذْ يتنازعُون بَيْنَهُم أَمْرَهم فقالوا آبْنُوا عليْهِم بُنْياناً ربُّهم أَعْلَمُ بِهِم قال الَّذين غَلَبوا على أَمْرِهِم لَنَتَّخذنَّ عليْهِم مَسْجِدا . سيقولون ثلاثة رابِعُهُم كَلْبُهم ويقولون خَمْسةٌ سادِسُهُم كَلْبُهم رجْماً بالغيْب ويقولون سَبْعَة وثامِنُهُم كَلْبُهُم قُلْ ربِّي أَعْلَمُ بعدّتهم مايَعْلمهم إلاّ قليل فلا تُمارِ فيهم إلاّ مِراءً ظاهراً ولاتَسْتَفْتِ فِيهم مِنهُم أحدا . ولا تَقُولَنَّ لشيءٍ إنِّي فاعِلٌ ذلك غداً . إلاّ أَنْ يشاءَ الله وآذْكُرْ ربَّكَ إذا نسيتَ وقُلْ عسى أَنْ يَهْدِيَنِ ربِّي لأَقْربَ من هذا رَشدا . وَلَبِثوا في كَهْفِهم ثلاث مئةٍ سنين وآزدادوا تِسْعا . قُلِ الله أَعْلَمُ بما لبثوا لهُ غَيْبُ السَّمٰواتِ والأَرْض أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ مالهُم من دونِهِ مِنْ وليٍّ ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أَحَداً »

سورة الكهف (٩ - ٢٦)

فِتْيَةٌ آمنــوا بِرَبِّهِم

في الزمن السَّحيق ، وُمنْذُ مئاتِ السنين ، كانت وقائع وحوادث هذه القصّة ...

ومع أَنّها صورة تكرَّرت على مدار التاريخ في الصراع بيْن الإيمان والكُفْر ، إلا أَنَّها تميّزت تفاصيلها ونتائجها بتجلي القُدْرة الإلهية للعيان ، فربطتْ بيْن المعجزة الربانيَّة في دنيا البشر وبين حقيقة البعث والنُّشُور .

ففي إحدى المدُن التي سبق لأَهْلها الإيمان بالله تعالى ، انتشرت دواعي الانحراف ، وراجت بضاعةُ الشَّيطان ، وزاغ الناسُ عن أَمْرِ الله ، وتفشت عوامل الضلال ...

ولقد كان الحاكم – الملك – على رأس الكفرةِ الفجرة ، مُمعناً في الطغيان ، مُغْرقاً في الفجور والْعِصْيان ؛ وكذلك أَعْوانُهُ من وزراء وحاشية ؛ فعمَّ الفساد ، وتخبَّطَ المجتمع كُلُّه في دياجير الجهالة ...

وقامتِ النُّصُبُ والتماثيل في كُلّ مكان ، والأحجار والأوثان ، شاهدةً على سلطانِ الشيطان ... وخُفُوت صَوْتِ الإيمان ، وانْزوائه إلى حين .

غير أنّ طائفة قليلة العدد من الناس ، من أهل هذا البلد ، أقاموا على ولائهم للحق ، لم تجرفهم فتنة الشيطان ، ولم ينْساقُوا في تيَّار الضلالة ...

وبَرَزَ من بينهم مجموعةٌ آتاها الله جُرْأةً وشجاعةً ، فَنَفَضتْ عنها غُبار العجْزِ والكسل، وصَدَعَتْ بأَمْر الله ، وَتصدَّت لِلْباطل .

وتولاّهُم الله سُبْحانه برعايتِهِ وتأييده وَعَوْنه ، فزادَهم هُدى ، وأنارَ بصيرتهم وبصائرهم بنوره وأيَّدهم بروحٍ من عنده .

وَرَبْطنا على قلوبِهِم

إذْ قاموا في وَجْهِ الطغيانِ والكُفْر ، لايخشون سطْوةً ،

ولايخافون بأْساً ولا رهقا ، إذِ ارتبطتْ قلوبهم بالحقّ تعالى ، وتقوّوا بِهِ أيمّا قُوّة ...

وأعلنوها مُدَوية ؛ ﴿ **فقالوا ربُّنا ربُّ السمٰواتِ والأرض** ﴾ لا الأنْصابُ ولا الأزْلام ؛ ولا الأحجارُ ولا الأوْثان ، وياقومنا إنْ أنْتُم إلاّ في ضلالٍ مبين ؛ لن نَرْضَخَ للظُّلْم ، ولن نستجيب للانحراف ، ولن نَسْجُد لِغَيْر الله و ﴿ **لَنْ نَدْعُوَا من دونِهِ إلهاً لقد قُلْنا إذاً شَطَطا** ﴾

وراحوا يُبَشّرون بآرائهم هذه في كُلِّ الأوساطِ ، ويغْشونَ الأنْدية والبُيوت ، ولم يتركوا مكانا حتى الأسواق والتجمُّعات .

الصِّـدام

ولكن أنّى لهؤلاء الفتْية أنْ يستمرُّوا في دْعَوتِهم لتصحيح العقيدة ، والطاغيةُ لهُم بالمرْصاد ؟! فلقد أُدْرك مبلغ خطورتهم على حكمه ونفُوذِهِ ، وإمكانية زَلْزلَةِ العرْشِ من تَحْته ...

فأُحيط بِهِم ... ، وهُدِّدوا في حياتهم ومعاشِهِم إذا لم يكفُّوا عمّا هُم عَليْه ؛ فأطلقوا صَكَّ البراءةِ مِن قومهم ، ونفضُوا أيْديهم من آفتراء الكذب على الله وقالوا : ﴿ **هؤلاء قَوْمنا اتخذوا مِنْ دونِهِ آلهةً لوْلا يأْتونَ عليْهم بُسلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أظلَمُ مِمَّنْ آفترى على الله كَذِبا** ﴾!!

إلى الْكَهْـف

واضْطروا إلى اعْتزالِ مُجْتمعهم فِراراً بدينهم ، وهروباً من بَطْشِ الطاغية بهم ، ولجئوا إلى كَهْفٍ في سَفْحِ جَبَلٍ قريبٍ من مَدينَتهم ، بما أَلْهَمَهُم الله تعالى ...

ولَحِقَ بهم كَلْبُهم ...

فلما دخلوا شعروا بشيْءٍ من الأمانِ والطُّمأنينة ، وغشيتْهُم السَّكينة ، وتنَزَّلَتْ عليهم رحمةُ الله تعالى ...

اتّخذوا أماكنهم ، وافترشوا الْأَرْض ، وَقَعَد كلبُهُم بالوصيد[1] ، وكأنَّهُ الحارس الأمين .

الكَهْفُ !!! وَنَشْر الرَّحمة

ومن المألوف المعروف أَنَّ الكُهُوف مأوى السِّباع ، ومبيت الضواري ، كما تُعشِّشُ فيها الزواحف السامَّة ، أو الحشرات المؤْذية ... ، وأَنَّ الظّلام الذي يكْتَنِفُها من الداخل يدعُو إلى الرَّهبةِ والقلق ، ويتسرَّب إلى النفوس بوحْشةٍ وأَرَق ...

لكن هذا الكهْف - يابني العزيز - كان عل الْعَكْسِ تماماً ... ،

---

(١) بفناء باب الكهف حيث يسد (باب) الكهف وإيصاد الباب : إطباقه وإغلاقه .

فقد اكْتَسَتْهُ رحْمَةُ الله تعالى ؛ فما أَحسَّ أصحابُهُ بِشَيْءٍ من الإزعاج ولا الخوْف ، وآسْتنار بنور الإيمان بالله فَكأنَّه الأرض المجلوَّة في رابعة النّهار ، ولعلَّ الحشرات والزواحف قد التزمت جُحُورها بأَمْرِ الله سُبْحانه وقبعتْ فيها لا تُحرِّك ساكناً .

السُّـــباتُ

ومع دخول وقْتِ المساء ، وحُلُولِ اللَّيْل ، وقد شعر أصحابُ الكهْفِ بالراحة بعد التَّعب ، والاطمئْنان بعد الرَّهَب ، تسلَّل السُّباتُ إلى عيونهم فغَشّاها ثم آستسلموا لِلْكرى ... ؛ وناموا نوْماً عميقاً .

وأشْرَقَتْ شمس اليوْم التالي ، فَأَضاءت بنورها الأَرْض ، وتحرَّك كُلُّ حيٍّ إلى مَسْعاه ؛ ماعدا أصحابَ الكهْف !؟

فَقَدْ ظلُّوا في سُباتهم ومنامهم ...

بُنَيَّ العزيز :

إنّ للشَّمْس في تحرُّكها الظاهر ، من المشرق إلى المغْرب خَطَّ سَيْرٍ مُحدَّد ، لا تخالفه ولا تحيدُ عنه ؛ ﴿ **ذلك تقديرُ العزيز العليم** ﴾ ؛ وتدبير الخالق سُبْحانه .

ولكنها بالنسبة لِأَصحاب الكهْف ، بأَمْرٍ من الله تعالى ، كانَتْ إذا طلعتْ وأَشْرَقَتْ وقَاربَتْ أن تمسّ بشعاعها بابَ الكهْف تزَّاورُ عنه وتميل من ناحية اليمين ؛ ثم تَعْتَدل ... ، وإذا غَرُبَتْ

تَقْرِضُهُم قَرْضاً خفيفاً من ناحية الشمال ، فلا تؤذيهم ولا تؤثّر فيهم ...

ولقد كان مَرْقدهم في ناحيةٍ مِنَ الكهْف كأنها الجُبّ ﴿ **وهُمْ في فَجْوةٍ منه** ﴾ ، فتحتضنهم هذه الْفَجوة كأنّها حِجْر الأُمّ ، بحنانٍ وحدْب .

هذا الميْل الشَّمْسيّ كان آيةً من آياتِ الله القادر ، ...

فالمؤمن دائماً وأبداً في رعاية الله ، لايخاف ولا يحْزن ، ولا يضطرب ولايستسلم ، أما الكافر النّافر فهو مُهدّد في كل لحظةٍ وآنٍ بالخطر الساحق الماحق ، قد فقد الرُّشْد واتّبع الضلال ، ﴿ **ذلك من آياتِ الله ، مَنْ يَهْدِ الله فهُوَ الْمُهتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لهُ وليّاً مُرْشدا** ﴾

قيــاسُ الــزَّمن

وتتابعتِ الأيّام ، وكرَّتِ الشُّهورُ والأعوام ...

وهم في رقْدَتهم ...

عيونُهُم مفتوحة ، وحدقاتُهُم مُتَّسعة ، وأنْظارهم مصوَّبةَ في آتجاهٍ واحدٍ كأنها السِّهام المصوبة !! لا تهتزّ أجفانهم ولا ترتعش رمُوشُهم ... ، فكأنَّهم أيقاظٌ وهم رقود .

طالت لحاهُم وشعورهم وأظافِرُهم ... ، وتَغيَّرت ألْوانُ وجوههم ، فاصفَرَّتْ بعض الشيء ...

وكذلك كان حالُ كَلْبهم ؛

لوْ قُدِّر لأيِّ إنسانٍ حيّ أَنْ يَطَّلِعَ عليهم في وضعهم هذا لامتلأ قلبه من مَنْظرهم رُعْباً وَخَوْفا ، ولما طاق الوقوف لحظةً واحدة ... ، ثُمّ فَرَّ بعيداً يطلب الأَمْن ، والطُّمأنينة .

ولقد كان تَقّلبهم في منامهم ذات اليمين وذات الشِّمال بحركةٍ ربانية ، لا إرادية ، من غير إحساسٍ منهم ، ولا آنفعال .

الْبَعْـــثُ

وتعَاقَبَتْ على أصحاب الكهْفِ عشرات السنين ، وهُمْ على هذه الحال ...

فماتَتْ أَجْيالٌ من الأَحياء ونبتتْ أجيالٌ أُخْرى ، وزالت معالم وقامت محلها معالم أُخْرى ؛ وتَقوَّضَتْ عروش وسلاطين وقام غيرها على أَنْقاضها ، وتَبدَّلت الْأَرْضُ غير الأرض ... ، ثُمَّ نَفَخَ الله فيهم نَسْمَةَ الحياةِ مجدَّداً ...

فقاموا من رَقْدَتِهِم ؛ هذا يتثاءبُ ... وهذا يتمطّى ... وذاك يتثاقل ... ؛ فقال قائِل مِنْهُم : تُرى كمْ لِبْثنا نائمين .. ؟

قال ذلك وقد أَحسَّ بشعور خفيٍّ أَنَّ الرَّقْدة كانت طويلةً ، فَأَجابَهُ مَنْ كان بِقُرْبِهِ :

– لبِثْنا يَوْماً ...

ثم استدْرك فأَضاف :

- أَوْ بَعْض يوْم .

لكنَّهم عندما تحسّسوا لحاهُم وشعورهم ؛ ونَظَرُوا إلى أَظافِرِهم ، قالوا :

- ربُّكُم أَعْلم بما لَبِثْتُمْ

إذ غلب على يقينهم أَنَّ ذلك لا يحدث إلاّ في مُدَّةٍ أكثر مما ظنوا .

ولكنّهم مازالوا في مقياسهم الزمنيّ الدنيويّ !؟

الجـــوع

كان الجوعُ أوّل إحساسٍ جسمانيٍّ أَلَمَّ بِهِم ...

ولكن ... كيف السبيل إلى الطعام ؟!

لقد خرجوا من المدينة ونظام الحاكم الطاغي يطاردُهم ، وَأَهْلُها في جهالتِهِم يَعْمَهُون ، وإزاء هذا فهُمْ لا يستطيعون المواجهة أو الظُّهُور ...

فراحوا يفكرون ويدبّرون ، وشِدَّة المسْغبة تلحُّ عليْهم بالحلّ السريع .

ثم اختاروا واحداً مِنْهُم ، أَعْطوه بعض القطع الفضيَّة من المال ، وقالوا لهُ :

– ائْت المدينة متلثِّماً متخفّياً ، وحاذِر أن يراك أَوْ يعْرفك أحد ... ، وآبتعد قدر مايمكنك عن رجال الحاكم وأَعْوانه ... ، فآشْترِ لنا بعض الطعام لنأكل ، ونسدّ رمقنا ، وكُنْ متنبِّهاً واعياً وأَحْسنِ التصرُّف ... لأنَّك إن وقعْت وقعْنا معك ... ، فعرف القاصي والداني مكاننا ، ولسوْف نكون معرّضين لِلْفتنة من جديد ، فإمّا أَنْ يعذّبونا بالحبْس والرَّجْم ، أَوْ نَتْرك ديننا وإلٰهنا ونعودَ في مِلَّتهم ... ، وفي كلتا الحالتين لا نرجو فلاحاً ...

كذلِكَ أَعْثرْنا عَلَيْهِم

وأتى رسُولُهُم المدينة ...

كان منظره غَيْر مألُوف ، في لباسِهِ وهيئَةِ وَجْهِهِ ... ؛ بالنسبةِ إلى الناس والمواطنين ؛ وأما من ناحيتِهِ هو ... فقد دَخَلَ المدينة وكأنَّه غريب عَنْها لم يزرْها من قَبْل ؛ طرقاتها ومساكنها وحوانيتها تبدو له في أشكالٍ وأنماطٍ مُنْكرة ، وكذلك الناس ... في طريقة لُبْسهم وَأشكالهم ...

كُلّ غريبٌ عن الآخر ؛ وكأنَّه من عالمٍ غير عالمه ،

فسعى في الشّوارع ، وقد صَرَفتهُ الدهْشَةُ عن كُلّ وصايا رفاقِهِ ، ونَسي تحذيراتهم ... ، وراح يتنقَّل على غَيْر هُدى ...

حتى أتى بائع أَطْعمةٍ ، فَأَخْرَجَ النقود الفضّية وقدَّمها له ؛

وقبْل أنْ يتكلّم ، حدثت المفاجأة ... ، لقد كانت النقود من عُصُورٍ سحيقة ... ، فَصَرَخ البائع ، وتجمْهر الناس وظنُّوا أنَّ هذا الإنسان الغريب الشّكل قد عَثَر على كَنْزٍ ، فلمّا كلّموه ... وجدوه لايفقه شيئاً من لُغَتهم ... ، وحين ردَّ عَلَيْهم لم يفهموه أيْضاً ، وبدأ التّجاذُب والشّدّ ... ، فَأَفْلَتَ مِنْهُم وراح يركض باتجاه رفاقه في الغار . وتراكض الناسُ من خلْفِهِ ...

وأخَذُوا يتزايدون ويتكاثرون ،

كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً شيباً وشباناً ؛ كما نُقِلَ الخبرُ إلى الحاكم فأوْفد شِرذمة من الْجُند .

إنّ وَعْد الله حَقّ

وماكاد الناسُ يأتُونَ باب الغار وهم يلْحقُونَ بالهارب مِنهم ، ثم يتجمهرون ويكثر اللَّغَطُ فيما بينهم ، حتى كان أصحابُ الكهْفِ جميعاً قد حقَّتْ عليهْم كلمة الله ، وتوفّاهم إلى رحمتِهِ .

وأدْركَ الساعون إثْرهم حقيقة تاريخيَّة لفّها الزمن في طيّاتِهِ ؛ وهي فرارُ طائفةٍ مؤمنةٍ من أهْلِ البلد ، ذات يَوْم ، من حُكْم الكُفْر وطغيانِ الظُّلْم ، ولجوؤهم إلى الكهْف .

كما ازداد إيمانُ الناسِ الحاضرين بُقدْرة الله وقدره ، وأن الله يبعث من في القبور ؛ وأن وعْدَهُ هو الوعد الحق .

﴿ وكذلك أعْثرنا عليهم ليعلَمُوا أنَّ وعْد الله حق وأنّ الساعة لاريْب فيها ﴾

صدق الله العظيم

ذُوالقَـرْنيْن

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذي الْقَرْنيْن قُلْ سَأَتْلو عَلَيْكُم مِنه ذِكْرا . إنّا مَكَّنّا لهُ في الأرض وآتيْناهُ مِنْ كُلِّ شيءٍسَبَبا . فأتْبعَ سببا . حتى إذا بَلَغَ مَغْربَ الشمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئةٍ وَوَجَدَ عِنْدها قَوْماً قُلْنا ياذا الْقَرْنيْن إمّا أن تُعَذِّبَ وَإمّا أنْ تَتَّخِذَ فيهِم حُسْنا . قال أَمّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْف نُعَذِّبُهُ ثُمّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عذاباً نُكْرا . وأَمّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالحاً فَلَهُ جزاءً الحُسْنى وسَنَقُولُ لهُ مِنْ أمْرنا يُسْرا . ثُم أتْبَعَ سببا . حتى إذا بَلَغَ مَطْلَعَ الشمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَمْ نَجْعل لهُم من دونها سِتْرا . كذلِكَ وَقَدْ أحطْنا بما لَدَيْه خُبْرا . ثُم أتْبع سببا . حتى إذا بَلَغ بَيْن السَّدَّيْن وَجَدَ من دُونِهماقوْماً لايكادون يفقهُونَ قَوْلا . قالوا ياذا القرْنيْن إنَّ يأْجُوج ومأْجوج مُفسدون في الأرْض فَهَل نَجْعل لكَ خَرْجاً على أنْ تجْعل بَيْننا وبينهُم سَدّا . قال : ما مَكَّنّي فيه ربّي خيْر فأَعينُوني بقُوَّةٍ اجْعَل بينكُم وبينهُم رَدْما . آتُوني زُبَرَ الحديد حتّى إذا ساوى بَيْن الصَّدفيْن قال آنْفُخُوا حتى إذا جَعَلَهُ ناراً قال : آتُوني أُفْرِغْ عليْه

قِطْرا . فما آسْطاعوا أَنْ يظهروهُ وماآستطاعوا لهُ نَقْبا . قال : هذا رحمةٌ من ربيّ فإذا جاءَ وعدُ ربيّ جَعَلَهُ دَكَّاءَ وكانَ وَعْدُ ربيّ حَقّا ﴾

صدق الله العظيم

سورة الكهف (٨٤ – ٩٨)

الحاكِمُ الصّالِح

كان « ذو القرنيْن » حاكما صالحاً قد مكّن الله له في الأرض ، فأعطاه سُلْطاناً وطيد الدعائم ، وَيَسَّرَ له أَسْباب الحكْم والفتْح ، بالعدْل وقوَّة البأْس ، وكذلك أسباب العُمْران والبناء بالحزْم والفهْم ، فَسَادَ البلاد وساسَ العباد ، وأحْسَنَ السيرةَ في الرعيَّة ، فأَحبّوه وَتعلَّقوا بِهِ ، وأطاعوهُ ...

إلى مَغْـرب الشَّمْـس

ولقد كان من شَأْنِهِ أَنْ خَرَج من دائرة حدود بلاده وأقطار حُكْمه يسيحُ في الأرض ، على رأْس جيشٍ قويٍّ من جُنْدِهِ ، كثيفٍ في عدده ، يسدُّ الأفُق كالجراد المنتشر ... ، لايبغي ظُلْما ولا عُدْوانا ، ولكن ليُقيم العدْل في أَرْضِ البشر وليرفع عن كاهل النّاس أثْقال الظلْم ووطأَة الشرور .

فَسَلَك طريقه إلى المغرب ، ومضى في وَجه ماهُوَ ميسَّر له ؛

حتى بَلَغَ قَرْنَ مَغْرِبِ الشَّمْس عند المحيط الأطلسي ، الذي كان يسمِّيه العربُ بَحْر الظُّلمات ، ويظنون أن اليابسة تنتهي عنده ...

وتَوَقّف بجيشِهِ عند مصبِّ أَحَدِ الأنهار ، حيث تكثر الأعْشاب ويتجمع حولها طين لَزِجٌ هُوَ الْحمأ ، وتوجد البَرَكُ وكأنها عيون الماء ...

الفاتحُ العادل

هنـــاك ...

أحاط بقبائل كثيرة ، وأقْوام مختلفي الألوان واللُّغات ، تضطرب لديهم مفاهيم الحياة ، بعضهم مؤمن بالله ، وبعضهم كافر ،

وَحَيْثُ إنَّه قد خَرَج بقصْدِ الإصلاح والهداية ، دَخَلَ ديار هؤلاء الناس راغباً في الخير ...

لذا أَعْلَنَ دستوره على الملأ ، ونشره فيهم ، وأَدْركوا بما شاهدوه من قُوة ذي القرنيْن أَنَّه قادرٌ على تحقيق ما أَعْلَنَ .

لقد أذاع أَنَّ للمعتدين الظالمين ، المتجاوزين لحدود الله ، عذابهم الدُّنيوي ، وأنهم بعد ذلك يردُّون إلى ربِّهم فيعذّبهم عذاباً نُكْرا ، لانظير لهُ فيما يعرف البشر ؛ وأما المؤمنون الصالحون فإن لهمُ الجزاء الحسن والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة والتيسير .

بُنَيَّ العـزيز :

لقد كان لهذا الدستور أثره في ضبط أحوال هؤلاء الناس ، وتقويم سلوكهم ، وردِّهم إلى الصواب ، واستقامة سبيلهم ؛ إنّه الأثر العظيم الذي تركه « ذو القرنيْن » متغلْغلا في صميم حياتهم .

لم يُباشر حَرْباً ، ولا خاض معركةً ، ولم يُرِق دماً ... ، بل اكتفى بالإعلان إصلاحاً ، وما أَسْرَع مااستجاب له الناس والتفّوا حَوْله .

دُسْتُور الحُكْمِ الصالح

الدستور – يابنيّ العزيز – هُو القانون الأساسي الذي يضبط سلوك الأفراد والجماعات ، وينظِّم طرائق عيشهم ، ويحدِّد لهم الواجبات والحقوق .

فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم ، أما المعتدي الظالم فيجب أن يلقى العذاب والإيذاء .

وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه حُسْنا ، ومكاناً كريماً وعوْناً وتيسيراً ، وَيجد المعتدي جزاء إفساده عقوبةً وإهانة وجَفوةً ... ، عندئذٍ يجد الناس ما يَحْفزهم إلى الصلاح والإنتاج ، ويشجعهم على الاستقامة والبذْل .

أما حين يضطرب ميزان الحكْم وتميل كفَّة الظُّلْم ، فإذا

المعتدون المفسدون ؛ هم المقرّبون والمقدَّمون ، وإذا العاملون الصالحون هم المنبوذون المبعدون ؛ عندئذٍ تتحول السلطة فى يد الحاكم سوْط عذابٍ وأداة إفساد ، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والانهيار .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبا

هذا الجيش القويُّ ، وهذا السُّلْطان ، وهذا الحكْم الصالح ... أَجْدَرُ بِهِ أَنْ لايتوقّف ، بل يَزْحف ، ليعُمَّ الأرض بخيره وفَضْله ...

ولقد كان من أَمْر الله تعالى لـ « ذي القرنيْن » أن يكون أداة إصلاح ورائد خَيْر في دُنْيا الناس ...

وبَيْنما هُوَ في أَقْصى المغرب ... نراهُ يشُدُّ الرِّحال إلى المشرق ، وَيتْبع سبباً جديداً ؛ ثم يَمْضي على رأس قُوّاته وجُنْده مستعيناً بالله متوكّلاً عليه .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سببا . حتى إذا بَلَغَ مَطلعَ الشَّمْس وَجَدها تَطْلُعُ على قوْمٍ لم نَجْعل لهُمْ من دونها سِتْرا . كذلك وقد أَحَطْنا بمالديْه خُبْرا ﴾

سار بجيشه يطوي الليالي والأيّام ، ويجتاز الفيافي والقفار ، لا تعوقه الجبال والوديان ولا السُّهُوب والْقِيعان ، حتى بَلَغَ أقصى مشرق القارة الإفريقية ...

إنها أرض مكشوفة ، لاتحجبها عن الشمس مرتفعات

ولا أشجار ، فالشمس تطلع على القوْم فيها – حين تطلع – بلا ساتر ...

فوطَّدَ فيهم دعائم الإيمان والنِّظام ، ونسَّق لهم وسائل وأسباب الحياة .

ولقد كان « ذو القرنيْن » في رحلتيْه بين قرنيْ الشمس إلى المغرب ثم إلى المشرق ، قد مرَّ على أقوام ومُدُن ، وقبائل وعشائر ، ففتح في تلك الديار العقول والقلُوب ، لايبغي استعماراً ، ولا يري لُصُوصيةً ولا استغْلالاً ، إنما يريد الهداية والخيْر ، وَصلاحَ النَّاسِ دنياً وآخرة ؛ فقط من أجل هذا استخْدم الْقُوَّةَ ... وسعى في الأرض .

بَيْن السَّدَّيْن

أَنْجَز « ذو القرنيْن » مهمَّتهُ الإصلاحيَّة في الغَرْب والشَّرْق ، ثم عاد إلى قاعِدَة مُلْكِهِ في « الْيَمَن » ، تحُفُّ به الانتصارات ، فيتواضع لله الذي وفّقه وأيَّده ، ومنحه هذه البركة ، لايتكبَّر ولا يتجَبَّر ، ولايداخله الغُرورُ والعُجْب .

وفي الطريق ، وقَبْل أَنْ يَصِلَ إلى وطنِهِ وبلده ، جاءتْهُ الْأَنباءُ بأن بلاد « بيْن السَّدَّيْن » تتعرَّض للفتن والمظالم ، وأنَّ أهلها البسطاءَ الضُّعفاء يُعانُون الأمَرَّيْن من تسلُّط الغرباء على بلادهم ؛ فلابُد من إنقاذهم ونُصرَتهم ، وردّ الكيْد والأذى عنهم ، فعدَل عن دخول أَرْض الْوطَن ونُشْدانِ الراحة ؛ وقرَّر مواصلة الرِّحلة والجهاد في سبيل الله .

يَأْجُـوج وَمأْجُـوج

تقع بلادُ مابَيْن السَّدَّيْن في الشرق الأقصى ، في أواسط القارة الآسيوية ، وكان يسكنها بعض القبائل البدائية ، الذين يعيشون على الفطرة .

وكانت مَوْجاتُ من شعوب « يأجوج » و « مأجوج » تتدفق بيْن الحين والحين على بلاد ما بيْن السدَّيْن من خلال مَمَرٍّ جبليٍّ ، فتعيث في الأرض فساداً ، وتسفك الدماء أنهاراً ، وتنهب ، وتَسْلب ، وتترك الناس يموج بعضهم في بَعْضٍ من الْفَزَع .

ولقد تكرَّر ذلك مراراً ، ولم يكن أهل مابيْن السدَّيْن بقادرين على دفْع هذا الأذى وصرف هذا البلاء .

المنْقِـــذ

فلمّا وافاهُم « ذو القرنيْن » على ديارهم في جحافِله ظَنُّوهُ من طَرْزِ « يأجوج » و « مأجوج » أوّلاً ، ففزعوا منه إلى الجبال يعتصمون بها ، وخلَّفوا وراءهم زروعهم وثمارهم ودورهم ...

لكنَّه طَمْأَنهم ، واسْتَنْزلهم من معاقلهم ، وأبدى لهم كُلَّ ضروب الفضل والإحسان ، وشَرَح لهم قصده في معونتهم وردِّ الأذى عنهم ...

فقالوا له : **﴿ يا ذا الْقَرْنيْن إن يأْجوجَ ومأجُوجَ مفسدون في الأرْض ، فهل نَجْعل لَكَ خَرْجاً على أنْ تَجعل بيْننا وبينهم سَدّا؟**

قال : مامَكَّنّي فيه ربّي خَيْر فأعينوني بقوة أَجْعل بينكم وبينهم ردْما »

إنْ أَجْرىَ إلاّ علىٰ الله

لقد طَلَبَ القوْمُ مِنْ « ذي الْقَرْنيْن » أَنْ يُقيم لهُم حاجزاً يسُدُّ على « يأْجوج » و « مأْجوج » المنافذ ، إذْ تَوَسَّمُوا فيه الخير والقُوَّة .

وَعَرَضوا عَلَيْه لقاءَ ذلك خَرْجاً وأَجْراً ... ، وكان هذا بدافعٍ من فِطْرتِهم وسذاجةِ تفكيرهم .

فَتَبسَّم « ذو القرنيْن » مِنْ عَرْضهم ، ثم قال : إنَّ القوَّة التي أعطانى الله إياها ، والسلطان الذي وهَبَه لي ، وما مكنني فيه من الإصلاح ، وهيَّأَ لي مِنَ الأَسْباب هُوَ أعظم الأَجْر ، ورضوانُهُ في الآخرة خَيْر من هذا كُلِّه ومن الدُّنْيا ومافيها أَيْضاً ...

يا قَوْم : إنْ أَجْرىَ إلاّ على الله .

ذو الْقَرْنيْن : المهنْدس وَالعالِم

ولقد رأى « ذو القرنيْن » أَنْ أَيْسر طريقةٍ لإقامة السدّ هي ردْم الممرّ بيْن الحاجزيْن الطبيعيَّيْن ، الجبليْن الشاهقين ...

فطلب إلى أولئك القوْم البُسطاء السذَّج أن يعُينوه على العمل بقوَّتهم البدنيّة والعضليّة ...

فجمعوا له ، بناءً على طلبِهِ ، قِطَع الحديد ، ثُمَّ كوَّمها في الشِّعْب بيْن الحاجزيْن ، فَأَصْبحا كأَنَّهُما مِصْراعيْ صَدَفةٍ تَغلِّف ذلك الكوْم .

ولما أَصْبَح الرُّكام بمساواةِ الْقِمَّتَيْن ، طلب إلى القوْم أن يضرموا النَّار وينفخوا فيها لتسخين الحديد ، فلّما توهَّج واشْتدَّ ، وعلا مِنْه اللَّهب ، أَفْرَغ عليه النُّحاس المذاب ، فتماسك بعضه ببعض ..

وبدا بعد أَنْ بَرَدَ كأَنَّه والجبليْن قطعة واحدة ؛ ناعم الملْمس لاتستقرّ فوقه قدم ، ولاتستطيع يد أن تحدث فيه نقْباً أَوْ نقْرةً ...

ومن ثَمَّ تعذّر على « يأجوج » و « مأجوج » أَنْ يغيروا على الديار كما كانوا يفعلون ، وحمى الله أَهْل السَّدَّيْن من الأذى والشَّر والفتنة ...

ولما انتهى « ذو الْقَرْنيْن » من مهمّته ، نظر إلى العمل الضَّخْم الذي قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تُسْكره نشوة القوّة والعلم ... ، ولكنه ذكر الله فشكره ، وردَّ إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه ، وكل عمل ، وتبرَّأ من قُوته إلى قوّةِ الله تعالى ، وفوَّض إليه الأمر ...

وعاد من حيْث أتى .

قـــارُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ إنَّ قارونَ كانَ من قَوْم موسى فَبَغى عَلَيْهم وآتيْناهُ من الكُنوز ماإنَّ مفاتِحَهُ لَتَنوءُ بالعُصْبَةِ أُولي الْقُوَّة إذْ قال لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إنّ الله لا يُحبُّ الْفَرحين . وآبْتَغ فيما آتاكَ الله الدّار الآخرَةَ ولا تَنْس نَصيبكَ من الدُّنْيا وأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ الله إلَيْكَ ولا تَبْغ الفسادَ في الأَرْض إنَّ الله لا يُحبُّ المفْسِدين . قال : إنَّما أُوتيتُهُ على عِلْمٍ عِنْدي أَوَ لم يَعْلم أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ من القرونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعاً ولا يُسْأَل عَنْ ذنوبِهِم المُجْرِمُون . فَخَرَج على قَوْمِهِ في زينتِهِ قال الذين يُريدون الحياةَ الدُّنْيا ياليْتَ لنا مِثْلَ ماأُوتى قارُونُ إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عظيم . وقال الَّذين أُوتُو الْعِلْم وَيْلَكُم ثَوابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمن وَعَمِلَ صالحاً ولايُلَقاها إلا الصابرون . فَخَسَفْنا بِهِ وبدارِه الأَرْضَ فما كانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنْصُرونَهُ مِنْ دونِ الله وماكانَ من المنْتَصِرين . وَأَصْبَح الَّذين تَمَنَّوْا مكانَهُ بالْأَمْس يَقُولُون : وَيْ كَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِر لَوْلا أَنْ مَنَّ الله عَلَيْنا لَخَسَف بنا ... وَيْ كَأَنَّهُ لايُفْلِحُ الكافرون . تِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ نَجْعلها لِلَّذين لايُريدون عُلُوّاً في الأَرْضِ ولا فساداً والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين ﴾

صدق الله العظيم

سورة القصص (٧٦ - ٨٣)

مـالُ « قـارُون »

كان « قارون » من بني إسرائيل ، من قَوْم « موسى » – عليه السلام – الذين شاءَتْ أقدارُهُمْ أنْ يعيشُوا في مِصْر تحت حُكْم « فِرْعون » وسُلْطانِهِ ، مُسَخَّرين في خِدْمته ، يستذلّهم ويستبدّ بهم .

ولقد كان من ضِمْن أهْداف نشاطات رسالة سيدنا « موسى » – عليه السلام – وَسَعْيِهِ ، أنْ يخلّص بني « إسرائيل » من ذُلِّ السُّخْرةِ لـ « فِرْعون » ، ويرفع عنهم إصْرَهُم[1] والأغلال التي كانَتْ عليْهم ؛ ويَنْجو بِهِم إلى أرْض المعاد؛ في إيمانٍ وَعِزَّة .

وإذا كانت المواجهة مع « فرعون » تعني المواجهة مع طغيان السُّلطان واستبدادِ الحكْم ، فإنها مع « قارون » كانت تعني المواجهة مع طغيانِ المال واستبداد الغنى ﴿ **كَلّا إنّ الإنسان ليطغى أنْ رآه استغنى** ﴾

وكلاهما من منبع واحدٍ : يفور بالشَّهْوةِ ، ويمور بالهوى .

وَلَقَدْ ظَلَّ غنى « قارون » ، وما أوتيه من مالٍ وثروة على مدى القرون والأجيال مَضْرِبَ الأمْثال ...

حتى عصرنا الحاضر ، وأيامنا هذه ...

---

(١) الإصر : الذنب والثقل .

فإذا ما أُريد وصف غنيٍّ بسعة الثروة ووفرة المال قيل فيه : لقد أُوتِيَ مالَ « قارون » !!!

كانت أموال « قارون » من ذهبٍ وفِضَّةٍ ... ، وجواهر ولآلىء ... ، وغير ذلك ؛ تودع في خُزُنٍ حديديَّةٍ ، منبثّةٍ في غُرَفِ قَصْرِه المشيد ... ، ولكثْرتها فإنّ مفاتيحها كانت رُزماً في سلاسل ، يعْجزُ عن حَمْلها ونَقْلها مجموعة من الرجالِ الأشدّاء الأقوياء ...

نِعْمَـةٌ أَمْ نِقْمَـة ؟!!

إن العقْل الضعيف المحدود ، والرؤية السَّطْحية للأمور والأشياء تَتصوَّر أن المال والثروة نِعْمةٌ من الباري سبحانَهُ وتعالى على العباد ،

لكن الحصيف من النّاس يرى غير ذلك ... ، إذْ يرى أنَّ العطاء إنما هُوَ للابتلاء والامتحان ، فإذا ماستُخْدم المالُ في الطاعة ووجوه الخيْر والْبِرِّ كان نِعْمةً تَجْزى عند الله تعالى بأَحْسَنَ الجزاء ، في الدُّنيا وفي الآخرة ؛ وأما إذا آسْتُخْدِم في المعصية وأُنْفِق في الشرور والآثام كان نِقْمةً ، لأنه يزيد من سيِّئات صاحِبِه ، فيُضاعَفُ لهُ العذابُ يوم القيامة ...

أمّا زيادَة الْمُسيء وإغداقُ المالِ عليه ، وتوْسعة الرزْق والثروة ، إنما هو آستدْراج من الله تعالى ...

والحكمة ، كل الحكمة – عزيزي القارىء – هي في قَوْل سيدنا « سليمان » – عليه السلام – ﴿ **هذا من فَضْل رَبّي** ﴾ [لماذا ؟] ﴿ **لِيَبْلُوَني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكفُر ، وَمَنْ شَكَر فَإنّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومَنْ كَفَرَ فإنَّ رَبِّى غَنىٌّ كريم** »[1]

إنّ الله لا يُحبُّ الْفَرِحين ؟!

ونعودُ إلى « قارون » ...

لقد كان « قارون » من « بني إسرائيل » المقيمين في مِصْر ولكنَّه كان متميِّزاً عَنْهُم ... إذ لم يكُن مُسْتَعْبَداً مثلهم أَوْ مُسخّراً .

ولقد جارى السُّلْطان في آنحرافِهِ العقيدى ، فالْتَزَم خط « فرعون » ونهجِهِ ، وطغى وبغى ، وآثر الحياة الدُّنْيا ، كما تجبر وتَكبر ... وآسْتَذَلَّ رقابَ العباد ، وسخّرهم لخدمة مآربِهِ وشهواتِهِ ﴿ **إن قارون كان من قوْمِ موسى فبغى عليهم** ﴾ .

فَتَدَفَّقَتْ عليْه الثروة والمال تَدفُّق النِّيل في أَرْضِ مِصْر ... ، فَأَضحى « قارون » أغنى النّاسِ ، وأعظمهم مالاً وأَوْسعهم رزقا .

وكان على « موسى » – عليه السلام – أن يواجِه « قارون » – أيضاً – ليردّه إلى صوابِهِ ، ويهديه إلى الحق وإلى صراط مُسْتقيم .

---

(١) سورة النمل – ٤٠ .

ولقد ركَّزَ « موسى » موعظته لـ « قارون » على قاعدتيْن آثْنتيْن :

أولاهما : أنَّه وَجَدَه في نَشْوةٍ آسرة وفرحةٍ غامرة ، قد مَلَكَ عليْهِ الغنى كُلّ مشاعره وأحاسيسه ، فبدا دائماً في حالةٍ من الْبَطَر ... ، يضحك بملْء شدقيْه للمعان الذهب وبريق الفضّة ... ، وتجحظ عيناهُ في دهشةٍ وسرور كُلّما وقعتا على دُرَّةٍ أو لؤلؤة أو حَجَرٍ كريم ...

ويُقَهْقه عالياً وهُوَ يُقَلِّب الجواهر والدنانير في صناديقها ، وقد غاصَتْ أصابعه المزيّنة بالخواتم فيها ... ، كما تهتزُّ الأقراطُ في أُذُنيْه فتزيده رَعْشَةَ فرحةٍ وآرْتجافة نشْوةٍ ، وكأنَّهُ سكِّير يَعُبُّ من الخمرْة فلا يفيق ولا يصحو ...

وجده « موسى » على تلْك الحال من التدهْور والانحراف ، فَأَرْسَلَ إليْه مع طائفةٍ من عقلاء بني اسرائيل ومؤمنيهم ، يقول له : **﴿ لا تَفْرَح إنَّ الله لا يُحبُّ الفرحين ﴾** ...

لاتَزْهُ ولا تتكبَّر ولا تتجبَّر ...

ولاتبْطر ...

ولاتخرُجْ بمعنى الْفَرَح عن أَصْلِهِ ، ولاتشطط بحقيقتِهِ عن مضمونها .

ولقد وَعَظَهُ « موسى » – عليه السلام – بِنَفْسِهِ ، كما وعظه بأعوانِهِ ، وذكَّره وزجره ... ، وتوعَّده بعقاب الله تعالى ، عاجلاً وآجلاً .

إلا أن « قارون » كان قد غفل عن كل حقيقة ، وزاغ عقله عن كل هُدى ، وَلَجَّ في عِنادِهِ وغطرستِهِ وَطُغْيانه ...

﴿ إنّها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصُّدور ﴾

(ولا تَنْس نَصيبَكَ من الدُّنيـا ...)

قال له « موسى » – عليه السلام – :

– يا » قارون » لقد آتاك الله تعالى مالاً لا حَصْرَ له ، وثروةً ماعُرِفَتْ في الْأَوَّلين ؛ وماذاك إلاّ لِيَفْتنَك وَيبتليك ، أتشكر أم تكفُر ...

فما أُوتيتَهُ لابُدَّ أن تُوازِنَ فيه وفي مصْرِفِهِ بَيْن المستقرّ والمستوْدع ، وبَيْن المعْبَرِ والْمَمَرّ ... ، بيْن الدار الآخرة وبيْن الحياة الدُّنْيا ... ، بيْن الباقية والفانية .

فَجُلُّه لابُدَّ أنْ يُوجَّه لِلْبرِّ والخيْر ، ويُنفق في سبيل الله ... ، وأَقَلُّه تستعين به على نصيبك من الدُّنيا ، لباساً وطعاماً وشراباً ، وفي حِلِّه ... ، دونما إسرافٍ أوْ تبذير ، ذلك أنَّ الأول هو الباقي الذي تُؤْتىٰ ثمارُه في الآخرة رضي ورحمة ، وأما الثاني فهو الزائل الفاني ، الذي ينقضي في الدنيا مع سُوَيعات الحياة ...

إذْ : [**ليس لَكَ من مالك إلاّ ما أكَلْتَ فَأَفْنَيْت أوْ لبسْتَ فَأَبْلَيْت أو تصدَّقْت فَأَبقيْت**] .

وعليه – ياقارون – ، ﴿ ابْتَغ فيما آتاك الله الدَّار الآخرة ولا تَنسَ نصيبك من الدُّنيا ﴾

(وَأَحْسِنْ كما أحْسَن الله إلَيْك ...)

كان « قارون » يَسْتَمِعُ إلى مايقول « موسى » وهو في نَجْوةٍ عنه ...

لقد كان حاضراً بجسده غائباً بعقْلِهِ وَبِحِسِّه ؛

يَنْظُرُ إلى يده المقْبوضة وقد زيَّنَتْها الخواتم ، ثم يَتَأمَّلها ... ، وحيث أنْوار المشاعلّ والمصابيح عليها ، وعلى دُرَرِها وفصوصها ... ، فتنعكس بريقاً يخطف الأبْصار ... ، وإذا « قارون » مخطوف الْبَصَر والبصيرة ...

ولم ينتبه إلى جليسه « موسى » – عليه السلام – إلا بَعْد لحظاتٍ من توقّف « موسى » عن متابعَةِ الكلام ... ،

فقال « قارون » ... :

– هيه ... وبَعْد .. !!

كان « موسى » – عليه السلام – قد توقّف عن الوعظ ، وهو يرى « قارون » في آنصراف تامٍ عنه ، يسمع ولايسمع ، يسمع بأُذَنَيْه لكن قلْبه في غَفْلةٍ ... ، وعيناهُ زائغتان قد شُدّتا إلى زينَتِهِ وحُليِّهِ ... ، ذَهَبه وجواهره .

فكان لابُدَّ من كلمةٍ كالصَّفْعة ... ، كلمةٌ موجعة ، لعلَّها توقظه من سُباتِهِ العميق .

قال « موسى » – عليه السلام – :

– يا » قارون » ... عليْك أنْ تُحْسِنَ إلى خَلْق الله وعبادِهِ كما أَحْسَنَ الله إلَيْك بالعافية والصِّحَّةِ والرِّزْق الوفير ، وبحبوحة العيش ...

عليْك أنْ تَعْدِلَ كِفَّتَيْ ميزانِكَ لِيَسْتَقيم أَمْرُك .

أما أن تَظَلَّ في هذا الزَّيْغ والضلال فذلك لَعَمْري قِمَّةُ الانحراف ، وذروَةُ الفسادِ في الأَرْض ...

انتبه وحاذِرْ ...

واعلم بأَنّ الله – سبحانه – ﴿ **لا يُحبُّ المفسدين** ... ﴾ كما ﴿ **لايُحبُّ الْفَرِحين** ﴾ .

انتبه وحاذِرْ من غَضَبِهِ وكراهيته ، و ... عقابِهِ !!!

(إنّما أُوتيتُهُ على عِلْم ...)

لم يأبه « قارون » بما وُعِظَ بِهِ ... ، بل أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بالإثْم ، واستبدَّت بِهِ عنجهيَّته وَهَبَّ به شَيْطانُهُ ... فقام واقفاً ... ، ثم هاجَ وماج ... ، وكأَنَّهُ ثَوْرٌ غاضِب ...

وقال :

– لقد كوَّنْتُ لكفاءتي ومقدرتي ، بعلمي وسُلْطاني ... ثَرْوَتي ، وليْس لِأَحَدٍ عليَّ مِنَّةٌ ... ، حتّى ربّك يا « موسى » ...

ولئن أُوتيت هذا المال من الله – على حدِّ زعْمك – ؛ فذلك لأنّني أَهْلٌ له ، وجديرٌ به ، بل أَسْتَحِقُّه من دون الآخرين .

كفى موعظةً ؛ وكَفى هُراء .. ، وأذناي لم تَعُودا تطيقانِ أنْ تَسْمعا فوق ذلك .

وظَلَّ « موسى » – عليه السَّلام – في جلْستِهِ ، لم يَغْضَبْ .. ولم يقف .. ، بل قال كلمة أخيرةً هي فَصْل الخطاب في هذا المجال .. ،

قال :

– ماتزال نفسك تخدعك يا « قارون » ؛ ومايزال إبليسك يغرّك ... ، لقد كان فيما مضى من الأمم والأفراد من هو أشدّ منْك قوة وأكثر جَمْعاً .. ، فأخذهم الله بذنوبهم وآثامهم ... ، وطوتْهُم الأرض في بطونها ... ، وينتظرون يوم الحساب ، ﴿ **يوم لاينفع مالٌ ... ولابنون ... إلاّ مَنْ أتى الله بقلْبٍ سليم** »

وآنتهى اللقاء ...

ولم يتعظ « قارون » بما سَمِعَ من صِدْقٍ وحقّ ... ، وظلَّ في غيِّه سادراً ، وفي باطِلِه وطغيانِهِ متمرِّغاً ، يُعَبُّ من كئوس اللذّة العاجلة حتى الثُّمالة .

(فَخرجَ على قوْمه فى زينتِه ...)

وفي ذات يوْمٍ مشهود ... ، حَفِلَ بالناس وبالجموع ...

خَرَج « قارون » مِنْ قَصْرِه يَرفُلُ بأبْهى الْحُلل التي تتماوج ألْوانها ، مُزَيّناً رأسه بإكْليل من الجواهر واللآلىء ، وكأنَّه التاج المرصَّع ، يُحاكي به الملوك ...

تُحيطُ به حاشية من الخدَم والحشم كُلُّهُم في أتمّ زينةٍ وأعْظَمِها ... ، يحرقون بيْن يديْهِ البخور في مجامِر من نحاسٍ مُطعمٍ ، تلتمع في وهج الشمس ، وتتَّقد بالنّار ثم تنفحُ الجوَّ بدخانٍ مُشبَّع بأزْكى الروائح ...

وعُصْبة من الْخَدم الطِّوال العراض ، سواعدهم مفتولة ، وعضلاتُ أجسامهم بارزة ، يحملُون رُزَماً من المفاتيح في سلاسل من الحديد ، يكادُون يقعون أرْضاً لثقلها وشِدَّة وطْأتها ؛ يمضُونَ خَلْفه ، ويتعقّبون خُطاه ...

كان « قارون » يَمْشي متبْخِتراً في خُيلاء وزهْو ...

وهاهُو ذا يمُرُّ في رُواقٍ طويل ، تصطفُّ الأعْمدةُ على جانبيْه كالحُرّاس ...

فَهَتَفَ بعض من كانوا يُشاهدونَهُ في مَوْكبه وزينته ، مِمَّنْ ضعفت قلوبهم وعُقُولهم : ﴿ **ياليْت لنا مثل ماأُوتي « قارون » ، إنَّهُ لذُو حَظّ عظيم** ﴾

أوْ ياليتنا نُؤْتى بعض حظّه من الغنى ووفرة المال وسعَةِ الرزق وعِظَم الجاه ... ، ياليْت !!! ، قالوها في حَسْرةٍ ونَدَم ، وقد لعبت بهم الظنون ، وعَصَفَتْ بأفئدتهم الجهالة ؛ فَرَدَّ عليهم من سمعوهم ، من الذين أوتُوا الْعِلْم والإيمان :

– وَيْلكم أيُّها المخدوعُون ، احْذروا الفتنة ، واتقوا الله ... ، واعلموا أنَّ ثواب البارى سبحانه وتعالى في الجنة خيرٌ مما ترَوْن وتشاهدون ، وتلكُم هي السعادة الأبديّة الخالدة ، لا فناء لها ولا زوال ،

كانوا فريقيْن ...

فريق غلب عليه هواه فآفْتُتِن بالزُّخرف والزينة ... وزيّن له إبليس سُوءَ الواقع بوهْم الخيال والخبال .

وفريق استمْسك بالهُدى وظَلَّ موصولاً بالله تعالى فلم تغرّه زينة الحياة الدنيا ، ولم يغرّه بالله الغرور .

﴿ ولا يُلقاها إلاّ الصابـرون ... ﴾

وَأُتْبَعَ الذين أُوتُوا الْعِلْم تَحْذيرهم للضُّعفاء المفتونين ، قَوْلهم :

وآعلموا عبادَ الله ... يامن غَرَّتْكم زينة « قارون » وخدعكُم مظهره ، أن دون الجنة التي وُعِدَ المتَّقون ، والتي حفلت بنعيم لاينضب وسعادةٍ سرمديّة ، والّتي لايوازيها شيء مماترَوْن أو تتصوَّرون ...

دونها نصَبٌ وتعب ، وطاعة وعبادة ، وٱلتزام ومجاهدة ، وابتلاء وفِتَنٌ بعضُه مِثل ماأنْتُم فيه الآن ...

كل ذلك يحتاج إلى الصَّبْر والمصابرة ... ، فاتقوا الله وٱصْبروا .. تدخلوا الجنّة بسلام آمنين .

﴿ فَخَسَفْنا بِهِ وبدارِهِ الأرْض ... ﴾

انْفضّت الجموع ...

وأوى كُلّ إلى سكنِهِ ... وداره ...

ومع حلولِ الظلام ، وقد أرخى اللَّيْلُ سُدوله ... ، وقعت الواقعة ... ، وامتثل الدرسُ حيّاً والموعظةُ قائمةً وشاهدة .

اهتزّتِ الأرض وٱرتجفتْ ... ، وترنّحتِ المبانى وتمايلَتْ ... ثم هدأتْ وٱطمأنّتْ .

لكنَّ الناس هبُّوا من فراشهم مذعورين ، في رعْبٍ وقَلَقٍ وَخَوْف ... ، ولبثوا جامدين في أماكنهم كالتماثيل ... ، أحداقهم متّسعة ، وألوانهم مخْطوفة ، وقلوبهم واجفَة مضطربة ... ، وألسنتهم محبوسة حتى عن الصُّراخ ...

وبعد ثوانٍ من الهدوء ، وقد استعاد الناس بعض سكينتهم ، حدثت رجفةٌ شديدة مصحوبة بِدَوِيٍّ هائل ، وأصواتٍ كأنها الرعْد المتواصل ...

ماذا حَدَثَ ياترى ؟

كان « قارون » في تلْك الآونة في القاعات الأرضيَّة من قصره حيثُ خُزُنه الحديدية الملآى بالمال والجواهر النفيسة ، يعدُّ حصيلة يومِهِ من الدنانير الذهبيّة ليُودعها إحدى الخُزُن ...

انشقّت الْأرض من تَحْتِ قصره وفتحتْ فاها ... فتدفَّقت ألْسِنَةُ اللهيب تأكل كُلّ شيءٍ في نهم ، وتَبْتلعُهُ في ثوانٍ معدودة ...

وأحيط بـ « قارونَ » من كل جانبٍ .. ، وتساقطتِ الأعمدة والحجارة الضخمة والأتربة ... حتى ردَمتْهُ تحت الأنقاض .

ثم ... إذا بالماء يتبعُ النار ... ، ويتفجَّر من الأرض عُيُوناً كأنَّهُ الإعصار في سُرْعة وطوفان ، ويغمُر المكان ...

وآنتهى أمْرُ « قارون » !!!

﴿ لا يُفلح الكافرون ... ﴾

وأصبَحَ الناسُ مع بزوغ الشمس ...

وبادروا يتحلَّقُون حَوْل المكانِ الذي كان يقوم فيه قَصْر « قارون » ... حتى الأطلال لم تكن موجودة ...

فالماء الْعَكِرُ الآسن يغطّي المكان ؛ والْأخشابُ المحترقةُ تطفوعلى السَّطْح ، والأشلاء تتناثر هنا وهُناك .

وتَحدَّث الناسُ بَعْضُهم إلى بعضٍ في دهشةٍ وعجب واعتبار ...

فقال الذين كانوا يغبطون « قارون » على مالِهِ وسلطانِهِ وزينته ، ويتمنّون حظَّهُ أو بعض حظِّه من الدنيا :

– [حقّاً وصدقاً أن الله تعالى يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يشاء من عباده ويوسِّع عليهم ، أو يقبض ذلك ويقْدره ... ، فالحمد لَهُ سُبْحانه أنْ مَنَّ عَلَيْنا فحفظنا من الخسْفِ والعذاب الأليم ...

إنّا تبْنا إليك سُبْحانك ، فَلَكَ الحمدُ في الأولى والآخرة ، وآمنّا – حَقًّا وصِدْقاً أنَّهُ (لايُفْلح الكافرون)

بُنَيَّ العزيز :

ويختم الله تعالى قِصَّة « قارونْ » بقوله الكريم :

﴿ تلْك الدار الآخرة نجعلها لِلذّين لايريدون علُواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتّقين ﴾

صدق الله العظيم

* * *

ملكة « سبأ »

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وتَفَقَّد الطَّيْر فقال مالِيَ لا أرى الهُدهُد أم كانَ من الغائبين . لأعذِّبنَّهُ عذاباً شديداً أَوْ لَأَذْبحنَّه أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلطانٍ مُبين . فمكَث غَيْر بعيدٍ فقال أَحطتُ بمالم تُحِطْ بِهِ وجئتُكَ من سَبَأٍ بنبأٍ يقين . إنّي وَجَدْتُ امرأةً تملِكُهُم وأُوتِيَتْ من كُلِّ شيء ولها عَرْش عظيم . وَجَدْتُها وقومهايسجُدون لِلشَّمْس من دُونِ الله وزيَّنَ لهُم الشيطانُ أعمالهُم فَصَدَّهُم عن السبيل فهم لايهْتدون . أَلّا يسْجدوا لله الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ في السماوات والأرض ويعلمُ مأتُخْفون ومائُعْلِنُون . الله لا إلهَ إلاّ هو ربُّ العرْشِ العظيم . قال سنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أم كُنْتَ من الْكَاذبين . اذْ هبْ بكتابِي هذا فألْقِهِ إليْهم ثم تَوَلَّ عَنْهم فانْظُر ماذا يَرْجعون . قالت : يا أيُّها الملأُ إنّي أُلْقِيَ إلَيَّ كتابٌ كريم . إنّهُ من سُلَيْمانَ وإنّه بسْمِ الله الرَّحمٰن الرحيم . أَلّا تَعْلوا عليَّ وآتوني مُسْلمين . قالت ياأيُّها الملأُ أَفْتوني في أَمْري ماكُنْتُ قاطعةً أمراً حتى تشهدون . قالوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وأُولُواْ بأسٍ شديد والأَمْرُ إليْكِ فانْظُري ماذا تَأْمُرين . قالتْ : إنَّ الملوك إذا دَخلوا قَرْيَةً أفسدوها وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وكذلك يَفْعَلُون . وإني مُرْسِلَةٌ إلَيْهم بهديَّةٍ فناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلون . فلَمّا جاءَ سُلَيْمانَ قال أتُمِدُّونني بمالٍ فما آتانِي الله خيْرٌ مما آتاكُم بَلْ أنتُم

بِهَدِيتكُم تَفْرَحون . ارْجِعْ إِلَيْهم فلَنَأْتِيَنَّهم بجُنودٍ لاقِبَلَ لهُم بها ولنُخْرِجَنَّهم منها أذِلَّةً وهُم صاغرون . قال : ياأيُّها الملأُ أيُّكُم يَأْتيني بِعَرْشها قَبْلَ أَنْ يأْتوني مُسْلمين . قال عِفْريتٌ من الْجِنّ : أنا آتيكَ بِهِ قَبْل أن تَقُوم من مقامِكَ وإنّي عليْهِ لَقَويٌّ أمين . قال الذي عِنْدَهُ عِلْم من الكتاب أنا آتيكَ بِهِ قَبْل أن يرْتَدَّ إليْكَ طَرْفُكَ . فلمّا رآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قال هذا مِنْ فَضْلِ ربّي ليبْلُوَني أَأَشكُرُ أَمْ أَكْفُر وَمَنْ شَكَر فإنّما يشكُرُ لِنَفْسِه وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ ربِّي غَنيّ كريم . قال : نَكِّروا لها عَرْشَها نَنْظُرُ أتَهْتَدي أمْ تَكُونَ من الذين لا يهتدُون . فلمَّا جاءَتْ قيل : أَهٰكَذا عَرْشُكِ !!! قالت : كَأَنَّهُ هُو وأُوتينا الْعِلْم مِنْ قَبْلها وكُنّا مُسْلمين . وصَدَّها ماكانَتْ تَعْبُدُ من دُونِ الله إنها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافرين . قيل لها : آدْخُلي الصَّرْح فلمّا رأتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وكشفَتْ عن ساقَيْها قال : إنَّهُ صَرْحٌ مُمَرد مِنْ قوارير قالت : رَبِّ إنّي ظَلَمْتُ نَفسي وأَسْلَمْتُ معَ سُلَيْمانَ لله ربِّ العالمين ﴾

صدق الله العظيم

سورة النمل [الآيات : ٢٠ إلى ٤٤]

(سليمانُ والهُدهُد ...)

إلى جانب النُّبُوَّةِ كان « سليمان » – عليه السلام – مَلِكاً ... ؛ ولم يكن مُلْكه ليقتَصِر على خلْقِ الله تعالى من الإنس ؛ بل شمل عالميْ الإنس والجنّ ... ، كما سخِّرتْ له الرِّيح ... ، والحيوان ... ، وعُلِّم منطق الطَّيْر أيْضاً ...

هذا المُلْك الواسع العريض ، وهذا السلطان الشامل النّافذ كان من فَضْل الله سبحانه وتعالى على سيدنا « سليمان » – عليه السلام – .

ولقد أدرك هذا [النَّبِيُّ – الملك] – بالعلم والإيمان اللذيْن أوتيهما أيْضاً – أن الحكمة من ذلك كُلِّه هو آبتلاؤه واختبارُهُ ، فقال : ﴿ **هذا مِنْ فَضْل ربّي لِيَبْلُوَني أأشكُرُ أمْ أكْفُر وَمَنْ شَكَر فإنمّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ومَنْ كَفَر فإنَّ ربّي غنيٌّ كريم** ﴾

وفي ذات يوْم حُشِرَ لـ « سليمان » – عليه السلام – جنودُهُ ، كُلُّ جنوده ...

ثم خَرَج في موَكبٍ حاشدٍ تحفُّ بِهِ الزيناتُ والأعلام ، وتُقْرعُ أمامه الطبول ، وينتشر جُنْدُه فوق الجبال وفي السُّهُول ...

حتى أتى على وادي النَّمْل ، فقالت نملةٌ مُحذِّرة بني جِنْسها : ياأيُّها النَّمْل آدخلُوا مساكنكم وآختبئوا في قُراكُم .. في جَوْف الأرض كيْ لا تَدوسَكُم أقْدام « سليمان » وجنوده فسمِعَها « سليمان » – عليه السلام – فتبسَّم ضاحكاً من قولها ...

لاغروراً ولا آستكْباراً ولابَطَراً ... ، بل حَمْداً وُشكْراً . فقال : ﴿ **ربِّ أوْزِعْني أنْ أشْكُرَ نِعْمَتَك الّتي أنْعَمْتَ عليَّ وأنْ أعمل صالحاً ترضاه وأدْخلْني بِرَحْمتِكَ في عبادك الصالحين** ﴾

ثُمَّ تَفقَّد الطَّير ... ، شأْن القائد يَسْتعرض عَسْكَره وجَيْشه ، فلم يَجِد الهُدْهُد ، ﴿ **فقال : مالي لا أرى الهُدْهُد أم كان من**

الغائبين ﴾ فلماذا يتخلَّف مِنْ غير أن أعْرف ؟ ﴿ **لأُعَذبنَّهُ عذاباً شديداً أو لَأَذْبَحَنَّه أوْ لَيَأْتِيَنِّى بُسلْطانٍ مُبين** ﴾ ... ، فإما أنْ يبيّن عُذْرَهُ في التخلُّف والغياب أو لينالَه مِنّي الجزاء الحقّ .

أعلن « سليمان » – عليه السّلامُ – ذلك علَى الملأِ من جُنْدِه ، في غَضْبةٍ لِلْعَدْل ... ، وماهي إلاّ لحظات قلائل حتى حطّ الهُدْهد بيْن يَدَىْ « سليمان » – عليه السلام – ، ومُعْلِناً طاعَتَهُ ، مُبَيِّناً سَبَبَ غيابِهِ ، في اعتذارٍ وآنكسار ؛

وكان مما قال :

سيِّدي ... ، لقد طوَّفْتُ في الآفاق ، ورفرفْتُ بجناحيَّ فوق بعيد الأمصار ، وعلمْتُ أمْراً تَجْهَلُه ويهمُّك ، وجئْتُكَ من « سَبَإٍ » بنبأٍ يقين .

« سَـــبَأ »

و « سَبأ » – يابُنيَّ العزيز – في « اليمن » ، وبينها وبين مملكة « سليمان » في القُدْس مسافات شاسعة ... ، وأقْطارٌ وأمصار ...

فماذا يكون النَّبأُ اليقين الذي جاءَ به الهُدْهُدُ من « سَبَإٍ » ؟

قال :

لقد وَجَدْت في تلْك الدِّيار أمراً عجبا ... ، ﴿ **إنّي وَجَدْتُ امْرأَةً تملِكُهُم** ﴾ ... ، امرأةٌ تحكُم البلاد والعباد ، وتسيطر على

مقدرات الأُمور ، ﴿ **وأُوتيتْ من كُلِّ شيْء** ﴾ مِن الغنى ... والسلطان ... والنُّفوذِ ... والْجَمال ...

أما آية الآيات ياسَيِّدي فَهُوَ عَرْشُها الذي تَجلِسُ عَلَيْه وتَتبوَّؤه ... ، لم أَرَ في الدنيا مَلِكاً لهُ مثل ذلك العرْش ، فخامةً وروعةً وأُبَّهَةً ... وأضاف الهُدْهد :

والعجيب في أَمْر ملكة « سبأٍ » وشعبها أَنَّهُم قد آثروا الضلالة على الهُدى ، فاتّبعوا سبيل الشيطان الذي زيَّنَ لهُم أعمالهم وأعماهُم عن الحقّ ، فَعَبدوا الشَّمْس من دون الله الملك الحق ، وعفّروا جباهَهُم بالسُّجود لَها ، وهاموا في ظلام الجهالة ...

وكان الأَجْدر بهم ، وقد نَعِمُوا بكُلّ رِزْقٍ وخَيْر آتاهم به ربُّهم ، الذي يعْلَمُ سِرَّهمُ ونَجْواهُم أنْ يَسجدوا له وحده ، ربّ العرْش العظيم !!!

كتابُ « سُلَيْمان » – عليه السلام – إلى « بلقيس » ملكة « سَبَأ »

استمع « سليمان » – عليه السلام – إلى دِفاع الهُدْهُد عن سَبَبِ غيابِهِ ، ثم قال : ﴿ **سَنَنْظر أصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ من الكاذبين** ﴾ ...

ولن نسلِّم بدعْواك قبل تبيُّن الحقيقة ؛

ثُمَّ كَتَبَ – عليه السلام – كتاباً ، رسالةً ، إلى ملكة « سَبَأٍ » وكلَّفَ الهُدْهُدَ حَمْلها ؛ وقال له : ﴿ **اذْهَبْ بكتابي هذا**

﴿ فَأَلْقِهِ إِلَيْهِم ﴾ ، وتخيَّر الوسيلة في إلقائِهِ وحاذِرْ أن يَرْوك ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عنهم ﴾ فآختبِئْ وآنْظُر مايَحْدُثُ من أَمْرِهم .

حَمَلَ الهُدْهُد الكتاب ، الرسالة ، وطار محلِّقاً في الجوّ يسابق الريح والسَّحاب ، ثُمَّ حَطَّ عِنْد نافِذَة مَخْدع « بلقيس »...

ونظر إلى الداخل فَلَمْ يَرَ أحداً .. ، فاغتنم الْفُرْصَةَ وألقى بالكتاب فوق السرير ، ثم عاد إلى النافذةِ يواري نفسه خَلْف ستائرها ...

فَلَمّا آوى « بلقيسَ » مْخدعُها ، وآسْتَبْدلَتْ ثيابها ثم صَرَفت وصيفاتها ، تقدَّمَتْ من سريرها لتنام .. ، فُوجئَتْ بلفافةٍ مطروحة فوق الغطاء ، تناولتْها وَفَضَّتْها وقرأت مافيها ...

وماكادت تأتي على آخِرِ كلمةٍ حتى تغيَّرت معالم وَجْهها ، فتجهَّمت وعبستْ وقَطَّبَتْ جبينها ... ، وذَرَعَتِ الغرفة جيئة وذهاباً أكثر من مَرَّةٍ ... ، واللفافة ماتزال في يدها ، وظَلَّتْ على تلك الحالِ وقْتاً ... ، تفكِّر في مضمون الكتاب وطريقة وصوله !!؟

ومالبثت أنْ سُرِّي عَنْها ، وأُفْرخ رَوْعها ، وزال عَبُوس وجْهها ... ، لقد آستدْركتْ عبارةً من الكتاب هَدْهَدَتْ كُلَّ ثورة نَفْسها ، وبرّدت جحيم قلْبها .

﴿ بسم الله الرحمن الرَّحيم ... ﴾

وأخلدت إلى النَّوْم ...

ومع الصَّباح الباكر صفَّقت بيديْها ، فدخلت عليها كبيرة

وصيفاتها ؛ فأعْطَتْ أوامراها باسْتدعاءٍ سريعٍ لأعضاء مَجْلِس الْحكْم والشُّورى ؛ لعقد جلسةٍ طارئة ...

وتبادر الكُبَراءُ والعظماء ، فلمّا ضمَّهُم المجلس إلى الملكة وقد جَلَسَت على عرشها ؛ تساءَلُوا بلسانِ كبيرهم عن السَّبَبِ ، فقالت « بلقيس » :

﴿ يا أيُّها الملأُ إنّي أُلقي إليَّ كتاب كريم . إنَّهُ منْ سُلَيْمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم . ألاّ تعلوا عليَّ وآتوني مسلمين ﴾

ثم التفتَتْ إليْهم متفحِّصَةً وجوهَهُم ، وأضافت تقول :

﴿ يا أيُّها الملأ أفْتُوني في أمْري ماكُنْتُ قاطِعَةً أمراً حتى تَشْهَدون ﴾

كانت « بلقيس » تَعْلَمُ قُوَّة « سليمان » وسُلْطانه ، وتدْرك من غير ريْبٍ سَعة نفوذه ، وَجِدِّيةَ إنْذاره وتحذيره ؛ لذا جمعت مُسْتشاريها وكبار أعْوانها لتبادلهم الرأي في الموْقف الطارىء ، وَلِتتَّخذ الموقف المناسب من بعد ...

فقال الملأُ :

﴿ نحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وأُولُوا بأسٍ شديد والأمْر إليْك فانْظري ماذا تأمرين »

الهديَّـــة ... الرِّشْـــوة !!!

قالت « بلقيس » :

- ياأيُّها الملأُ إني أَعْلَمُ - بحُكْم الخبرة والتَّجْربة - ﴿ **إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قَرْيَةً أفسدوها وجعلوا أَعِزَّة أَهْلِها أَذِلَّة** ﴾ ولا أريد لبلدي وشعبي أن يتعرَّضا على أيدي « سليْمان » لهذه المحنة القاسية ...

فلسوْفَ أُصانِعُهُ وأُداريه لأسْبُرَ غَوْره وأَقِف على حقيقة نواياه ؛ ﴿ **وإنّي مرسلة إليهم بهديَّةٍ فناظِرَة بِمَ يرجِعُ المرسَلُون** ﴾

فوافقوها على تدبيرها ؛ ثم جمعت هديَّةً لائقةً من المال والجواهر ، وبَعَثَتْ بها إلى « سُليمان » - عليه السلام -

﴿ ما آتاني اللهُ خَـيْر ... ﴾

تُرى ماذا سيكونُ وَقْعُ هذه الهديَّةِ على نفس « سُلَيْمان » ... ؟

لو كان ملكاً طامعاً من ملوك الدنيا ، جمّاعاً للمال ، مُحبّاً للسُّلْطان ، فلسوف يَفْرَحُ ويُسَرّ ...

لكنَّه كان من نوع آخر ... من نَوْعٍ ترقّى فوق ماديات الْبَشَر ، وسما فَوْق ذَهَبِهِم وَفِضَّتهم ،

إنَّهُ من نَوْع حَمَلَةِ الرسالة ، رسالة العدْل والحق والخيْر ؛ و ... الإيمان . فلما بَلَغَ المرسَلُونَ بَيْتَ المقدس حاملين الهديَّة ،

فرحين مَزْهُوِّين بها ؛ ودخلوا على « سليمان » ليقَدِّمُوها إليْه قال لهم :

﴿ **أتُمِدُّونَنِ بمالٍ ... !؟ فما آتاني الله خَيْر مما آتاكم ، بل أنْتُم بهديَّتكُم تفرحون** ﴾

وردَّ الهديَّـة ؛

وقال لكبير الرُّسُل متوعِّداً مُنْذِراً :

﴿ **ارْجِعْ إليهم فَلَنَأْتِيَنَّهُم بجنودٍ لا قبَلَ لهُمْ بها ولنُخْرِجَنَّهم مِنْها أذِلَّةً وهم صاغرون** ﴾

عَـرْشُ « بَلْقيـس »

وأراد « سليمان » – عليه السلام – أن يُرْغم أنْفَ الملأِ من مملكة سَبَأ ، « بلقيس » ومُسْتشاريها ... ، ويُقْنِعهم بالدليل الحسِّيِّ الماديّ أن القوَّة المستمدَّة من الله تعالى أعظم بكثيـرٍ مما هـمْ عليه من عنفوانٍ فارغ وعنجهيّةٍ كاذبة ...

فقال لبعضِ أعوانِهِ :

﴿ **يا أيُّها الملأُ أيُّكُم يأتيني بِعَرْشها قَبْل أن يأْتوني مُسلمين** ﴾

والعرْشُ – يابُنيَّ العزيز – هو رَمْزُ السلطان والْمُلْك ... !

وَ ﴿ **قال عِفْريتٌ من الْجِنِّ أنا آتيك بِهِ قَبْل أنْ تقوم من مقامك وإني عليْه لقويّ أمين** ﴾ ، أستطيع إحضاره بين يديك

بالسُّرعة القصوى ، سليماً من أي أذى ...

لكن « سليمان » – عليه السلام – كان يريد سُرْعةً أكثر ... وحضوراً أشَدَّ وأعظم ، فأشاح بِوَجْهِهِ عن هذا الْعِفْريت ؛

فقام آخر ، عنده عِلْمٌ أَوْسَعُ وسلطان أَبْلَغ فقال :

﴿ أنا آتيك بِهِ قبل أن يَرْتَدَّ إليْك طَرْفُك !!! ﴾

وفي لحظةٍ واحدة كان عَرْشُ « بلقيس » مُسْتَقرّاً بيْن يَدَيْ « سليمان » – عليه السلام – فقال في ضراعةِ إيمان وخُشُوع يقين :

﴿ هذا من فَضْل ربي لِيَبْلُوَني أأشْكُرُ أم أكفُر ومن شكر فإنما يشكر لِنَفْسِهِ ومن كَفَرَ فإنَّ ربّي غَنيٌّ كريم ﴾

﴿ كَأَنَّــهُ هُو ... ﴾

في تلك الأثْناء كانَتْ « بلقيس » قد غادرت « سَبَأً » في مَوْكبٍ ملوكي وحاشية حاشدةٍ من الكبراء والعظماء ، بَعْدَ أنْ رُدَّتْ إليها هديّتها ...

لقد آثرتِ السلامة لبلدها وشَعْبها ، وبادرت بالقدوم إلى مملكة « سليمان » في بَيْتِ المقدس ، مُعْلنةً ولاءَها ... ، ولم تَدْر ماحَلَّ بِعَرْشها .. ؛

وحين كانَتْ في الطريق ، وقد نُميَ الْخَبَرُ إلى « سُلَيْمان » ؛ أراد كما سبقَ وقلْنا إرغام الأنُوف ... ، فآسْتَقْدَم الْعَرْش ...

وقبل وصولها في موكبها ودخولها على « سليمان » – عليه

السلام – ، قال : ﴿ **نكِّروا لها عَرْشها ...** ﴾ وغَيِّروا بعض معالمه ومظاهره ﴿ **نَنْظُرُ أَتَهْتَدي أم تكون من الذين لايهتدون** ﴾

وَدَخَلَتْ « بلقيس » على « سليمان » في مَجْلِس سُلْطانِهِ ومُلْكه ؛ وبعد أن استقرَّ بها الجلوس ، ورُحِّب بها – على عادة الملوك – ، ﴿ **قيل : أهكذا عَرْشُكِ** ﴾ فنظرت ناحية العرْش ، وتَفَرَّسَتْ ... ثم ﴿ **قالت كأنَّهُ هُو ...** ﴾ مما يدُلُّ على الجهل ... ، ولو أنَّها آمنَتْ لعلمتْ بأنَّ قُدْرة الله تعالى لاحدَّ لها ...

وحُقَّ لـ « سليمان » – عليه السلام – أن يقول : ﴿ **وأُوتينا العلْم من قَبْلها وكُنّا مُسْلمين . وصَدَّها ماكانَتْ تعبُدُ من دون الله إنها كانت من قومٍ كافرين** ﴾

﴿ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ ... ﴾

وسُجِّلَتْ على بلقيس ومَلَئِها مواقف الجهْل والضعف والتخاذل واحداً بعد الآخر ، بسبب كُفْرهم ...

وجاءَتِ الخاتمة لِتَدْحَضَهم ...

قام « سُلَيْمان » – عليه السلام – من مَجْلِسِه ، وقامَتْ « بلقيس » ؛ ثُمَّ نهض الحاضرون في إثْرِهم ؛ واتجهَ الموْكبُ إلى قاعات القصْر الداخليَّة مروراً بالصَّرْح ، وكان مكاناً فسيحاً رحْباً تحيطُ به الأروقة ذات الأعمدة ...

وتأخَّر « سليمان » – عليه السلام – ليقدِّم « بلقيس »

أَمامَهُ ... ، فلما أرادت أن تضع قدمها على بلاط الصَّرْح كَشَفَتْ عن ساقيها ...

لمـــاذا ؟

لقد رأتِ انْعكاس مقدَّم الموكب على أرض الصَّرْح ... ، كما رأتِ انعكاس الأعمدة ، ورُواء المنظر ... ، فظنَّت الأرض لُجَّةً من الماء الرائق الصافي ... ، فَتَبَسَّم « سليمان » – عليه السلام – ؛ وقال : ﴿ **إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير ...** ﴾ قد بُلِّطتْ أَرْضُهُ بالبلَّوْر الشَّفَّاف ...

هُنـــا ...

انهارتْ جاهليَّةُ « بلقيس » وطأطأت رَأْسها أمام الْعِلْم اللدُنِّي الذي وَهَبَهُ الله تعالى لنبيِّه « سليمان » – عليه السلام – ، وأمام القوَّة التي مُنِحَتْ له من البارى عَزَّ وَجَل ...

و﴿ **قالت : ربِّ إني ظَلَمْتُ نَفْسي وأَسْلَمْتُ مع سُليمان لله ربِّ العالمين** ﴾

وسيظل هذا المشهد من مشاهد معركة الإيمان والكفر عبرة لظالمى أنفسهم ليتبينوا أن النصر فى النهاية للمؤمنين الذين أسلموا لله رب العالمين .

أصحاب الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْف فَعَلَ ربُّكَ بأصحاب الفيل . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدهم في تضليل . وَأَرْسَلَ عَلَيْهم طيْراً أبابيل . تَرْميهم بحجارةٍ منْ سِجِّيل . فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مأْكول ﴾

صدق الله العظيم

(أَبْرهَـةُ الحبشي)

كانت اليمن – في أقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية – تخضع لحكم الأحباش ، وذلك قبل ولادة النبي ﷺ ...

فقد سيطروا عليها ، واستبدّوا بها ، وأدالوا دولة « الحميريين » من أَهْلها ، الذين كانوا ينتسبون إلى « قحطان » جدّهم الأكبر ، رأْس العرب العاربة .

أما « أَبْرهةُ » فقد كان والياً على تلك البلاد من قِبَل مَلِك الحبشة ، ولقد عُرف عَنْه الغلظة والشدّة وسوء الخُلُق .

وكان أَسْود شديد السّواد ، ذا شَعْرٍ مجعَّد ، ضخم الجسْم ،

عظيم الرأس ، قد شُقّت إحدى شفتيه الْغليظتيْن ، ولذا عُرف بـ « الأشْرم » ... !

وكان « أَبْرَهَةُ » على دين رؤسائه مِنْ ملوك الحبشة ، نَصْرانيّا متعصِّباً ... ، ومُبالغاً في كراهية كُلِّ معتقدٍ غير النصرانية .

الـتَّرْغيب

أما العربُ من أَهْل اليمن – رغم قسوة التسلُّط وقهر النفوس – فقد كانوا تواقين أبداً إلى أصالة انتسابهم التاريخي ، وولائهم للبيْت العتيق في « مكـة – أم القرى » ...

فمع بداية كُلِّ موسم كانوا يشدون الرِّحال إلى « الكعبة » زائرين معظّمين ، يتحمّلون مشاق السفر الطويل بصبْر وجلد ، ثم ترتاح أبدانهم وتطمئن نفوسهم حين يبلغون غايتهم ، وينتهون إلى مقصدهم .

وكان « أبرهةُ » يتساءل ، ويسأل :

– أيُّ بيْتٍ هذا الذي تقصده العرب ؟

فيجاب بأنّه بناء بسيط متواضع ، لافنّ فيه ولازخرفة ... ، قد رفع قواعده « ابراهيم » و « إسماعيل » – عليهما السلام – ... ، فيما مضى من التاريخ .

فقال « أبرهة » في نَفْسِهِ لَأَصْرِفَنَّ عرب اليمنِ عن هذا البيْتِ !!! ، ولايكون ولاؤهم المطلق إلاّ لي .

ثم شَرَع في إقامة كنيسةٍ عظيمةٍ ، جنَّد لها كل الطاقات ، فحشد البنائين ، وصاحب كل فنّ راقٍ وجميل ، وصرف الأموال الطائلة ، وأشرف بنفسه على إنجازها ، حتى باتَتْ تحفةً رَائعة .

لكن هذا الأسْلوب في التَّرغيب والإغراء لم يؤت ثماره فلم يتأثر بِهِ أهل اليمن ، فظلّوا عاكفين على معتقدهم ووثنيَّتهم ، وواصلوا طريقهم في المثابرة على إتيان « مكّة » مع كُلّ موسم ، معظّمين البيْت العتيق ، حاملين أنواع الهدايا والطُّرف .

الـتَّرْهيب

اغتاظ « أبرهة » أشدّ الغيْظ لأنه لم يُفلح في مسعاه ، فأقسم ليهْدِمَنَّ بيْت العرب – ويجعله قاعاً صَفْصفا ...

وأخذ يُعدُّ العُدَّة لذلك ، وأخبر ملك الحبشة بعزمه ونيّته ، مُزيِّناً له المكاسب والنتائج التي سوف يجنيها سُلطان الأحباش من وراء هذا التدبير .

حشد آلافاً من الجُنْد بكامل عُدّتهم من أدواتٍ وسلاح ، ثم خَرَج بهم من عاصِمَةِ مُلْكِهِ تحفُّ بِهِ الرايات وتقرع بيْن يديْه الطُّبول .

الفيـــل

وجعل « أبرهةُ » في مقدِّمة جَيْشه فيلاً ضَخْماً مارأت عيون البشر مثيلاً له في أرض العرب ، ولافي غيرها ... ، قد جُعل

فوق ظهره هودج كبير مُصَفَّح يحمي قائده من خطر أسنّة الحراب والسِّهام ؛ كما جُلِّل رأْسُهُ بالجلود الغليظة لنفس الغرض ...

وكان الهدفُ من سَوْق هذا الفيل في مقدّمةِ الجيْش ، هو استخدامه في هَدْم « الكعبة » ؛ حَيثُ يُثار ويُهاج ... بالْوَخْز والضَّرْب أو غير ذلك كيْ ينطحها برأسه نطحاتٍ شديدة فتتهاوى حجارتها ...

ولَكَ – عزيزي القارىء – أَنْ تَسْأَل :

– ولماذا يُستَخْدم الفيل ؟ أَلَيْس بإمكان « أبرهة » وجُنْده أن ينقضوا بناء « الكعبة » بأيديهم ومعاولهم ؟

وهــذا صحيح ...

لكن « أبرهة » المتغطْرس المستبدَّ كان يهدف إلى إذْلال الْعَربِ بِهَدْم رمْز مُعْتقدهم ومهْوى قلوبهم وأفئدتهم بأسلوبٍ فيه التحقير والازدراء ، وهو آستخدام الحيوان !!؟

لكّن سهْمه طاش ، كما سنرى ...

﴿ ويمكُرون ويمْكُرُ الله والله خَيْر الماكرين ﴾

في الطَّــريق

مضى « أَبْرَهَةُ » بجيْشه الكثيف ، وجنده المدجّج بالسِّلاح ، يقطعون المفازات ، يهبطون الوديان ويَعْلُون الجبال والكُثْبان ... ، وتثير حوافر خيولهم الغبار الذي يسدُّ الآفاق ... ، كما تَرْتَجُّ الأرضُ من تحت السّنابك ؛ وتهتزُّ كأنما أصابها زلزال .

و « أبرهة » يعتلي صهوة جواده ، غاطساً في دروعه ، وتلمعُ سِحْنَتُهُ السوداء تحت أشعّة الشَّمْس ...

تحيطُ به كواكبُ الفرسان الأشدَّاء ، وتخفق فوق رءوسهم الأعلام والرايات بألوانها الزاهية ، ورسومها وزخارفها المختلفة ...

ولقد ضاقت عليْهم الأرض بما رحُبتْ ، لكثْرتهم وانتشارهم ...

مغامـراتٌ فاشـلة

عرفت بعض القبائل من عرب « تهامة » و « عسير » بنيَّةِ « أبرهة » وخروجه من « اليمن » وقصْدِه « مكّة » ، فجاشتْ حميَّتها ، واضطرام حماسها ، وتَنَادَى زعماؤها للوقوف في وَجه الطوفان الزاحف دفاعاً عن البيْتِ العتيق وصوْناً للكعبة عن التدمير ...

ووقعتْ بينهم وبيْن جيْش « أبرهة » بعض المعارك والمناوشات ، إلا أنها باءَت بالفشل وعادت على أصحابها بالخسران والهزيمة والأشر ، فظلَّ « أبرهة » يَمْضي في طريقه مع جيشه كالسَّيْل المتدفق يهدم السدود والحواجز ، ويقوِّض الموانع ... ويخلّف من ورائه الخراب والدّمار .

حتى كان قريباً من « مكّـة » .

في ضواحـي مكـة

توقّف الجيش عن المسير ...

فأقام « أبرهة » معسكرهُ في الضواحي للاستراحة واستعادة النشاط ثم تنفيذ الهجوم على مكة وهدْم الكعبة .

كانت قريش في ذلك الحين قد استجابت لنصيحة شيخها « عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف » فَأَخْلَدَتْ إلى السكينة وتحركت بجموعها إلى شعابِ الجبال طلباً لِلْأمان ، وعدم التصدّي لجيش « أبرهة » أو الدخول معه في حرْبٍ خاسرة سلفاً ...

وكان « عبدالمطلب » – جد النبي ﷺ – في ذلك الوقت يمثّل الزعامة القرشية ، حكمةً ونضوج رأي ... ، ومهابةً ، يحترمه الجميع ويقدرون مكانته .

المناوشـــة

أخذت طلائع فرسان جيش « أبرهة » تجوب الضواحي ، وتتسقّط المواقع ، وتتحرَّشُ بالناس ... ، وتسطو على سرْح قريشٍ المنتشر في البادية طلباً للكلإ والمرعى ...

وصادَفَ أن سطا رجال « أبرهة » على قطيعٍ من الإبل والمواشي يُخصُّ « عبدالمطلب » – فيما سلبوه من رعْي قريش – ...

أُخبر « عبدالمطلب » بالواقعة ... ، فسعى إلى « أبرهة » كي يستردَّ حقّه ...

ربُّ البيْتِ يحميــه

كان في جيش « أبرهة » أَحَدُ زعماء القبائل العربية الموالية له ؛ وكان هذا الإنسان على معرفةٍ بـ « عبدالمطلب » ، وتربطه به صداقة ومودَّة ...

أتى « عبدالمطلب » إلى معسكر « أبرهة » واتّصل بصديقه وصاحبه وطلب منه أن يساعده في مقابلة « أبرهة » ...

وماأسرعَ مااستجاب الصدِيق ؛ فأخبر « أبرهة » أن زعيم قريش وشيخها يريد مقابلتَهُ والتحدَّث إليه ... فسمح له .

كان « أبرهة » يَجْلِسُ على كرسيّ عالٍ ، يشبه العرْش ... ومن ورائه العبيد يلوّحون بمراوح من ريش النّعام ؛ وآخرون يمسكون بالحراب ذات السِّنان اللامعة .. ، وطائفة من الحرس أيديهم على مقابض سيوفهم ، تلوح في عيونهم أمارات البأس والغلظة ...

منظر كُلُّه رهْبة ... ووقار ... وجلال ...

لكن « عبدالمطلب » حين دخل المكان لم يتأثر بذلك كُلّه ... ، بل كان يمضي باتجاه « أبرهة » في ثقةٍ واعتدادٍ وطُمأْنينة ...

ولقد كان شخص « عبدالمطلب » أَبْلَغَ من كُلّ تلك المظاهر، بقامته المديدة ، وشموخ رأسِهِ ، ولحيته البيضاء الناصعة ... ، فوقع في نفس « أبرهة » موقع التعظيم والتقدير ... ، وأجلس « عبدالمطلب » معه على مقعده العالى وهشّ في وَجْهِهِ .. ، وبَشَّ له ...

ثم سأله عن حاجته ،

ومن غَيْر تلْجلُجٍ أو تزويق كلام ؛ أو تملُّق ... ، عرض « عبدالمطلب » مطلبه بأَنْ تُرَدّ إليْه ماشيتُه ...

فنظر « أبرهةُ » إلى « عبدالمطلب » بدهشةٍ وتعجب ، ثم صارَحَهُ بأنّه عند دخولِهِ عليه قد خالطتْهُ الهيبة مِنْه ... ، وظنَّه إنَّما جاءَه ليبحث معه أَمْرَ غَزْو « مكة » والاجتراء على قُدْس أقداس العرب – الكعبة – ؛ فإذا به يحدّثُه عن أَمْرٍ شخْصيٍّ محْض ...

لذا فإنَّه قد خابَ فيه ظَنُّه ...

فبماذا أجاب « عبدالمطلب » ؟

لم يَنَفعل ولم يتأثّر ... ، بل ظَلَّ راسخَ النَّفْس رابط الجأْش ...، وبمنتهى الهدوء والثقة قال :

– الإبل – ياسيدي – أنا صاحبُها وأنا ربُّها ، فأنا المسئول عنها ؛ ولذا أقول لك : « أما الإبل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه »

نعم – عزيزي القارىء – : إن للبيت ربّاً يحميه ويمنعه ، ويحفظه من الأذى والعبث ...

وهي مقالة تنمُّ عن مدى عُمْق الأصالة الراسخة في قلْب ووجدان « عبدالمطلب » ، وأمثاله من شيوخ العرب ... ، أولئك الذين غَشَتْ قلوبهم وعقولهم غاشية الوثنيّة ، فتاهوا عن الحقيقة ، وعمُوا عن الهُدى ، وضلوا الطريق إلى الله بعبادة الأصنام قائلين :

﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾

أما « أبرهة » المتغطرِسُ المتكبِّر ، الذي تاه في بيداء الضلالة والجهالة ، فإنه لم يُدرك معنى الحماية الإلهيَّة التي نطق بها لسان « عبدالمطلب » من غير تكلُّف ولا تصنُّع ...

فأمر « أبرهة » – ساخراً – أنْ تُرَدَّ على « عبدالمطلب » إبِلُه ... وٱنفضّ المجلس !!!

الفيل ... والطَّيْر الأبابيل وحجارة من سِجّيل !!

واستعد « أبرهة » للهجوم ، وعبَّأ قواته ...

ثم أَصْدَر أَمْرَهُ لبعْضِ أعوانِهِ وقادتِهِ أن يوجّهوا الفيل نحو « مكّة » ، ويثيروه ويُهيجوه تمهيداً للانقضاضِ على الكعبة وهدْمها ...

لكنَّ الفيل لم يتزحْزح من مكانِهِ ، رغم تساقُط العصيّ الغليظة عليْه ، ورغْم وخْزه برءوس الرّماح والحراب ... ، ورغم السِّياط اللاهبة .. ،

وظلَّ كالطَّوْدِ الشّامخ ، أو الصخرة الكبيرة الراسية ... ، ومن عَجَبٍ أنهم كلما وجَّهوه وجْهةً غير الكعبة سعى وأسْرَع ... ، وقد يدوس بقوائمه الضخمة بعض الناس ... ولا يُبالى ...

وماهُو إلّا وقْتٌ يسير حتى احتجب نورُ الشمس عن الأرض ، وظلَّلتِ الغبْراء أسْرابٌ من الطيور المتلاحقة ، تحمل في مناقيرها (جَمْراً) يلْتهب ، ثم ترمي بِهِ جنود « أبرهة » ... ،

وكأنها – يابنيّ العزيز – في عُرفنا المعاصر : الطائرات القاذفات ، تحمل القنابل المدمّرة ، تنقضُّ على العدو فتُبيده ...

وأصْبَحَ كيْد « أبْرهة » في تضليل ... ، وتساقط جنودُهُ واحداً إثر آخر صَرْعى ، كأنهم العصف المأكول تنتشر جُثثهم وأشلاؤهم فوق الرمال ، حتى هو نَفْسه أُصيب بالذُّعْر ... ، فراح يَبْحثُ عن سبيلٍ للهروب والنجاة ، والخلاص من هذه الداهية الدهماء .

لقد اختار أضخم الحيوانات وأكبرها ، وأشدها فتْكاً في ثورتها لتكون أداتُه في هدْم بيْتِ التوحيد [أوّل بيْتٍ وُضِع للناس] ،

لكن الله تعالى ، جلَّتْ قدرتهُ ، ردّ على كيْد « أبْرهة » ومكره وتدبيره ، بالحيوان الضعيف ... ، بالطَّيْر المرفرف ... يحمل في منقاره الموْت الزؤام ... [حجارة من سجيل] .

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾

وبهذا كُفَّتْ يد الطغيان والإثم عن بيْتِ الله الحرام ؛ وكان لابُدَّ من أن تتِمَّ إرادة الله تعالى بتطهيره من رِجْس الْأَوْثان والأصنام ، وإعادته نقيّاً نظيفاً من دنس الجاهلية ، كما بدأ على عهد « إبراهيم » و « إسماعيل » عليهما السلام ، بولادة سيد الأنام ، رسولنا المصطفى « محمد » – عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام – .

ففي ذلك العام ، عام الفيل ، وُلد حبيبنا الأكرم ورسولنا الأعظم ، قدوة الموحدين ، وإمام المتقين ؛ وخير خلْق الله أجمعين .

هـاروت .. ومَاروتْ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إليْك آياتٍ بيِّناتٍ ومايكْفُرُ بها إلاّ الفاسقون . أَوَ كُلّما عاهدوا عَهْداً نَبَذَهُ فريقٌ مِنْهُم بل أكثرهُم لا يُؤْمنون . ولمّا جاءَهُم رسُولٌ من عِنْد الله مُصَدِّق لما مَعَهُم نَبَذَ فريقٌ من الّذين أُوتُوا الكتابَ كتابَ الله وراءَ ظُهُورهم كَأَنَّهم لايَعْلَمون . واتَّبَعُوا مائتْلوا الشياطينُ على مُلْكِ سُلَيْمانَ وماكَفَر سُلَيْمانُ ولكِنَّ الشياطين كفروا يُعَلِّمُونَ النّاسَ السِّحْرَ ومااُنْزِلَ على الملَكيْن ببابلَ هاروتَ وماروتَ ومايُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حتَّى يقُولا إنّما نحنُ فِتْنةٌ فلا تكفُر فيتعلَّمونَ منُهما مايُفرِّقون بِهِ بيْنَ المرْءِ وزَوْجه وماهُم بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلا بإذْنِ الله ويتعلَّمونَ مايضُرُّهُم ولاينفعُهُم ولقد عَلِمُوا لَمَنِ آشتراهُ مالَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خلاقٍ ولَبِئْس ماشَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُم لوْ كانوا يعْلمون . ولَوْ أَنَّهُم آمنُوا واتَّقوا لَمثوبَةٌ مِنْ عِنْد الله خَيْرٌ لو كانوا يَعْلَمُون ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة الآيات (٩٩ – ١٠٣)

فَصْل مِنْ قِصَّةِ يهـود ...!

بُنَيَّ العـزيز :

الآيات البِّيناتُ التي سَلَفَتْ ، هي منْ سورة البقرة ، وتحكي فَصْلاً من قِصَّة « بني إسرائيل » على مدار التاريخ ...

وقصّة يهودٍ من أَعْجَبِ وأَغْرب قصص الأُمم والأقوام ، لاتجد لها مثيلاً ولاشبيهاً بيْن الشعوب ، قد اتّسمتْ بِسِماتٍ معيّنة وصفاتٍ محدّدة ، عنوانها الشرور والآثام ، والجحود والنكران ، والغَدْر وانعدام الوفاء .

ولقد كان من شأْنهم أَنْ أَرْسل الله إليْهم من الأنبياء والرُّسُل العدد العديد ، ليستقيموا على الصراط ، ويلتزموا جانب الهداية ، ويحجموا عن كلّ شرٍّ وفتْنة ،

وتلك – يابُنيَّ العزيز – رحمةٌ من الله تعالى بعبادَه وخلْقِه ...

لكنّ « بني اسرائيل » ، بما جُبلُوا عليْه من سُوءٍ ، فهموا هذا الأَمْر على غير حقيقته ، فقالوا – زوراً وبُهْتاناً – إنهم شعبُ الله المختار !!؟

أَوَ لا ترى معي – يابُنَّي العزيز – أنّه كُلَّما كَثُرت أخطاء الإنسان ، ولم يُصْغِ إلى نُصحائه ، عَظُم عقابُه .. !! وهل في هذا شك ؟.

الكُفْـر والسِّـحْر ...

كان اليهود في المدينة المنوَّرة يتيهون على « الأوْس » و « الْخَزْرَج » بأنهم أصحابُ ديانةٍ سماوية ، وأنَّهم أهْل كتاب ...

وبالإضافة إلى ذلك كانوا يُنْذرون بمجيء نبيٍّ آخر الزمان ، « محمدٌ » – ﷺ – ؛ الذي يجدونه مكتوباً عِنْدَهُم في توراتهم وكُتُبهم ، بأوْصافِهِ وعلاماتِهِ ...

لـــذا ...

عجَّلَ نَفَرٌ من « الأوْس » و « الخزرج » الإيمان برسُولِ الله ﷺ ؛ وبايعوهُ بيعة العقبة في مكّة ، مرةً ومرتيْن وثلاثاً .. ، ثُمّ نقلُوا أصول الدعوة إلى أهليهم في المدينة المنوَّرة ... ، كما حملوا لواء الجهادِ في سبيل الله من بَعْد .. ، فكانوا أنصار الله ورسوله .

وحين هاجَرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة ، اسْتَمْسَكَ اليهود بماهُم عليه من انحرافٍ في العقيدة وضلال في السُّلوك الحياتيّ ، ولم يُتابعُوهُ على الإسلام الذي يعلمون أنه الحق من ربِّهم .

فعاهدهم – عليه السلام – على التعايُش من غير إضرار طرفٍ بالآخر أو الإساءة إليْه ، وأقرَّهم على ما اختاروه لأنفسهم ، لأنه ﴿ **لا إكراه في الدين ...** ﴾

لكنَّهم بطبيعتهم الغادرة الكافرة النافرة تحيَّنُوا الفُرَصَ لنبْذِ العُهُود والمواثيق ، ثم إنهم لم يكتفُوا بذلك بل حاولوا بكلّ وسيلةٍ رخيصةٍ أنْ يتخلّصوا من رسول الله ﷺ .. ، حتى السِّحْر لجئوا إليه ...

اليهـــود والسِّـــحْر

والسِّحْر – يابني العزيز – حقيقة واقعة على مرِّ التاريخ ، معلِّمها الشيطان ، ورائدها إبليس ؛ ومن جنده وأعوانِهِ النفّاثات في العُقَدِ اللواتي نَستعيذُ منهنّ ومن شرورهنّ بالله الرحمن الرحيم .. رب الفلق ... ورب الناس وَلَكَ أن تسأل : من أَيْنَ تعلَّم اليهود السِّحْر ؟ وكيْف أتاهم ذلك ؟

وقصّتُنا هي الجواب .

سُلَيْمانُ – عليه الســلام – وتَسْخير الْجِنّ ...

لقد وسَّع الله سبحانه وتعالى على سيدّنا « سليمان » الْمُلك والحكمة ، وآتاهُ من السُّلْطان مالم يُؤْتِهِ أحداً قبله ...

وعَرَف – عليه السلام – أن ذلك ابتلاءٌ من الله سُبْحانه وآختبار ، فاسْتَخدم كل ذلك في حقِّه وعلى وَجْهِه ، دونما انحرافٍ أوْ إضرار .

وكان من جُمْلةِ ماابتُلي بِهِ – عليه السلام – تَسْخير الجنِّ له ، إذْ يقْدرون على أعمالٍ خوارق ليستْ في مُسْتطاع البشر ولا مقدورهم ، فاسْتخدمهم في أغراضٍ شتى ، كُلُّها تعودُ بالنَّفْع والخيْر والحق ...

ولقد رأَيْتَ – عزيزي – في قصتِّه مع بلقيس (ملكة سبأ) في اليمن مدى سلطان الجنّ ومَبْلَغَ قُوَّتهم ، وكيْف سخّر « سليمان » – عليه السلام – ذلك لِصَرْفِ شَعْب « سبأ » وحُكّامه عن السُّجود للشمس واهتدائهم للحقّ ، وكيْف أسلموا لله تعالى ... جميعاً .

ومن جُمْلةِ ماسُخِّر له الشَّياطين ... كُلّ بنّاءٍ وغَواص ؛ بنّاءٍ يَرْفَعُ شامخ القصور فى أَقلّ من طرفةِ عَيْن ، وغواص يهبط إلى أعماق البحار والمحيطات يستخْرجُ دفينها من اللؤلؤ والمرجان وكل حَجَرٍ كريم ...

﴿ وآخرين مقرَّنين في الأصْفاد ﴾

وهذا نوْع ثالث سُلْسِلَ في الْأغلال والْقُبور وحُبِسَ عن الحركة ... ، لِخُطُورته وأذاه ، وعداوتِهِ لبنى الإنسان ...

شياطين الجِن وشياطين الإنس

وكان شياطينُ الجنّ المقرَّنون في الأصْفاد لايملكُون سوى ألسنتهم الطويلة ، التي تتجاوَزُ مَحْبِسَهم إلى النفوس الضعيفة من بني إسرائيل مِمَّنْ لم تَرُقْهم دعوة الحق ولا نُبُوَّة « سليمان » – عليه السلام – ، وكان أكثرهم فاسقين .

ووسْوَس شياطين الجنِّ لشياطين الإنس كلاماً كثيراً حوْل مُلْك « سليمان » وأنّه – عليه السلام – إنّما حصَّل سُلْطانه بالسِّحْر ، فآعتقدوا ذلك ... ، وأخذوا يَتَلقُّونَ تباعاً أصول هذا الفنّ .. ، انكبُّوا على دراستِهِ وإتْقانِهِ ... ، سواءً في « أورشليم – القدْس » قَبْل تَشْريدهم منها على يد الملك الفارسيّ « بُخْتَنَصّر » أم بعد ذلك .

سَبْيُ « بابــل »

تقع « بابل » في أرض العراق ، عند حدود فارس ، وهي مدينةٌ ذات حضارةٍ عريقةٍ في التاريخ ...

ولقد غزا أحدُ ملوكها ، ويُدْعى : « بُخْتَنَصَّر » ، أرض فلسطين وشَرَّد أهلها من اليهود تشريداً قبيحاً ، وسباهُم سَبْياً ، فظيعاً ، لايزال التاريخ يذكره إلى يوْمنا هذا ...

ولو أنَّ اليهود اتّعظوا بمانالهم وأصابهم لكان خَيْراً لهم ، لكنَّهم أغرقوا في الفتنة ، فعاودتْهمُ شرورهم وآثامهم حتى في أرْض

« بابل » ، وأُمْعنوا في تعلُّم السِّحْر وتعليمه ، وآستخدامه أسْوأَ اسْتِخْدام .

هـــاروت ومـــاروت

وتفشّى هذا الداءُ الوبيلِ ، والمرض الخطير ، فأَصْبَحَ شُغْل الناس الشاغل ، وقاعدتهم في كُلّ شأْنٍ من شئون حياتهم ...

في المطعم والملْبس والمشرب الحرام ، وفي الكسْب غير المشروع ... ، وفي الإضرار بالناس ... ، وإيذاء الأُسر ... ، وقطع كُلّ آصرةٍ اجتماعيةٍ بيْن بني البشر ... ، واستغلال العقول ... ، فكان الكُفْر بعيْنه وذاتِهِ .

﴿ واتبعوا ماتتْلواْ الشياطين على مُلْك سُليمان وماكَفَرَ سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السِّحْر ﴾

وكان لابُدَّ لمقاومة التيّار الشيطانيّ من عُنْصرٍ ملائكيّ ...

كما كان لابُدَّ من كَشْفِ الأساليب والألاعيب ، والحيل ... ، والمكْر ... ، وكل ضروب التَّمْويه والتضليل ... ، حمايةً لمن يريدون الخير والهدى ، ولو كانوا أقليّةً .

فبعث الله تعالى ملكيْن من عنده هما « هاروت » و « ماروت » وأنْزَلَ عليهما من عنده مايثبّتون به العقول والقلوب أنْ تزيغ وتعمى ، ويوحيان إلى الناس أنَّ الشياطين وسحرهم كُفْر ... وضلالة ...

﴿ ومايعلّمان من أَحَدٍ حتّي يقولا : إنما نحْنُ فتنة فلا تكْفُر ﴾

وأنهما – أي « هاروت » و « ماروت » ليْسا إلاّ فتْنةً وابتلاء ، ليميز الله الخبيث من الطيِّب .

عَـوْدٌ على بـدْء

لكن اليهود الذين أُشْربوا في قلوبهم حُبَّ الشَّر والميْل إلى الكُفْر ، بأكثريّتهم الساحقة ، قد عاودتهم تلك الأصالة الدنيئة ، فراحوا يتعلّمون أيْضاً من الملكيْن ماكان ينقصُهما من أساليب هذا الفنّ الرخيص – السّحْر – ؛ وظلُّوا على ولائهم للشيطان .

وهكذا – يابُنيِّ العزيز – ترى أنّ اليهود أَصْلٌ من أُصُول الشّر على الأرض ، قد توسّعوا من الْقِدم في تعلُّم السِّحْر وإتقانِهِ ، ونشْرِه في آفاق الدنيا وَبَيْن الناس .

﴿ وماهم بضارّين بِهِ من أَحَدٍ إلاّ بإذْنِ الله ﴾

وصَدَق الله العظيم .

صاحب الجنتين

بسم الله الرحمن الرَّحيم

قال الله تعالى :

﴿ وَاضْرب لهُم مثلاً رَجُلَيْن جَعَلْنا لأحَدِهما جَنَّتَيْن مِنْ أعْنابٍ وحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعا . كِلْتا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلها ولَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شيئاً وفَجَّرْنا خلالَهُما نَهَرا . وكان لهُ ثَمَر فقال له لصاحبِه وهُو يُحاوِرُهُ أنا أكْثَر مِنْك مالاً وأعَزُّ نَفَرا . وَدَخل جَنَّتَهُ وهُو ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قال ما أظُنُّ أنْ تبيد هذه أبَدا . وما أظُن السّاعَةَ قائمةً ولَئِنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّي لأجِدَنَّ خيْراً مِنها مُنْقَلَبا . قال لهُ صاحِبُهُ وهُوَ يُحاوِرُهُ : أكَفَرْتَ بالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ من نُطْفَةٍ ثم سَوَّيْك رَجُلا . لكنّا هُوَ الله رَبِّي ولا أُشْرِكُ بِرَبّي أحَدا . ولَوْلا إذْ دَخلْتَ جَنَّتَك قُلْتَ ماشاء الله لاقُوَّة إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقَلَّ مِنْك مالاً وَوَلدا . فَعسى ربّي أنْ يُؤتِيَن خيْراً مِنْ جَنّتِك وَيرْسِل عَلَيْها حُسباناً من السماءِ فَتَصْبح صعيداً زَلَقا . أوْ يُصْبِحَ ماؤهاغَوْراً فَلَنْ تستطيع لهُ طَلَبا . وَأُحيط بِثَمَرِهِ فَأصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْه على ماأنْفَقَ فيها وهي خاوِيَةٌ على عروشها ويقول : ياليْتَني لمْ أُشْرِك بِرَبي أحَدا . ولم تكُن له فئةٌ يَنْصُرُونَهُ من دُونِ الله وماكانَ مُنْتصرَا . هُنالِك الولايَةُ لله الحقّ هُو خَيْرٌ ثواباً وخَيْر عُقْبى ﴾

صدق الله العظيم

سورة الكهف الآيات (٣١ – ٤٤)

مع .. جارين في الدُّنيا

كان « عبدالله » و « الحارث » ... جارين متجاورين ، في السّكن والعمل ...

أما « عبدالله » فقد كان رقيق الحال ، قليل العيال ، شحيح الدَّخل والمال ، يسكُن بناءً متواضعاً قد تآكلتْ جدرانه وانْتخر سقفه ، ورثّ أثاثُه ...

إلا أنه كان قانعاً راضيا ، لاتفارق الابتسامة ثغره ولا البشاشة وجهه ولا الحمد أو الثناء لسانه ...

آمن بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً وبـ « محمد » - ﷺ - نبيّاً ... ، يغدو على حَرْثه ، ويكد في سبيل رزقه ومعاشِهِ ... ، ولايقصّر في سبيل الله ... ، فإذا مادعا داعي الجهاد ، وأذّن مؤذّن الغزو والكفاح وضع مِسْحاته ومكْتله جانباً ، ثم حَمَل سيْفه أو انتضى رُمْحه وانطلق يخوض المعامع والمعارك ...

وبإزاء سكن « عبدالله » المتواضع كانت تقوم دارٌ فخمة ، عالية البُنيان ، متينة الأركان ، متعدّدة الحجرات ، واسعة الممرات ... ، فاخرة الرياش ، قد ازيّنت بكلّ غالٍ ونفيس ...

كان يسكنها « الحارث » مع عيالِهِ الكُثر ، الذين يرفلون فى الدمقس والحرير ، ويَتطيبون بأغلى العطور ، وينعمون بالشهيّ من الطعام ، ويتمتّعون بطيبات الحياة ،

ولقد نَفَر « الحارث » وجَمَح عن دعوة الحقّ ، وآثر الضلالة على الهُدى ، وظلَّ على ولائه لجاهليّتِهِ ... ، يعبد الأصنام والأوثان ، ويستكثر من الرقيق ، ويستذل الضُّعفاء ويستغلُّهم ، ويستَنْبتُ الأرض بجهدهم وعرقهم ...

كلتـا الجنـتين ...

كان « الحارث » يملك أرضاً خصبَةً خيِّرة ، قد أوْدع الله سبحانه وتعالى – فيها ذروة العطاء ، تتدفّق المياهُ فيها رقراقةً غزيرة نميرة ... ، وتمضي في قنواتٍ ميسَّرةٍ إلى كل أنحائها ... لتسقى تُربتها وتغذّي أُصُول شجرها من الأعناب والنخيل ...

وكانت ثمارها تبدو على الأغْصان كأنها القناديل المعلَّقة تشعُّ نُضوجاً وبهاءً ، ممايوحي إلى نفس الرائي الطمأْنينة والرضى ، والحمد والشكر إن آمن واتّقى ... ، أما من ضلَّ وهوى فما تزيدُهُ إلاّ غرورا ونُكرا ...

أنا أكثر مِنْكَ مالاً ..

وعند مدخل البستان التقى « الحارث » بـ « عبدالله » جاره ...

كان « الحارث » يمتطي ركوبة ، في خُيلاءِ وزهْوٍ .. ، و « عبدالله » يمضي إلى عمله حاملاً ثِقْل أدواته على كتِفِهِ وعرق الجهد يتصبّبُ من جبينه ... ، فراح « الحارث » يحادثُهُ في أمر

الكسْب والمعاش متعالياً ، ثم يحاروه في أمر الإسلام ورسُولِهِ ساخراً هازئاً ... ، وينحو عليه باللائمة في معتقده وضعْف مسعاه وسوء عُقباه ...

ثم نظر « الحارث » إلى من حوْله من الولد والخدم والحشم ... ، ثم مدَّ بصره إلى بستانِهِ وماحفل به من ثمار وزروع وبهجة ، فجاشت نفسه بحبّ نعيم الدنيا وزخرفها وزينتها ، ثم قال لـ « عبدالله » ألا ترى .. ! أم أن عينيك قد غشيتهما سحابة إيمانك السخيف فَبِتَّ لاترى الواقع الملموس ؟! وأي نعيم بعد هذا ؟!

ثم تابع سـيره ...

الكُفْر بالله واليومِ الآخـر

وحين وَلَجَ بُسْتانه ... وقبل أن يُفارقه جاره « عبدالله » ، قال في صلفٍ أحمق ، وغرورٍ أخْرق ، وقد أثارته الأثمار والأشجار والأطيار والأنهار ... : ما أظن يا « عبدالله » أنْ تفنى هذه البساتين أوْ تبيد ، ... وما أظُنّ القيامة تقوم كما تدَّعي ... ، وعلى كُلٍّ لئنْ جاءت الساعة – حسب زعمك – ورُددْتُ إلى ربّي فلسوْف يكون حظي في الآخرة أعظم وأكبر من هذا ، فأنا المؤهّل لذلك ... ، الجدير بِهِ ...

فاستوقفه « عبدالله » ... ، ثم وضع عن كاهله مايحمل ... ، ومسح بكمّه عرق جبينه .. ، وقال في هدوءٍ واطمئنان ... وقد رفع بصره إلى السماء .

– يا « حارث » اذكر ولاتنسَ ممَّ خُلقْتَ ؟ ... ، لقد خُلقتَ من ترابٍ ثم من نطفةٍ !!! ، ولقد خلقك الذي خَلَق الأرض وأنبت فيها من كل زوْج بهيج ... ، أما أنا فإنني لاتغرني الحياة الدنيا وزينتها ، لأنها عرضٌ زائل ، تطوى وتفنى ... ، لقد آمنتُ بالله سبحانه رباً خالقاً ولن أُشْرِك بِهِ أبدا ... لن تشدَّني الدنيا إلى القعر لأختنق ...

نصحيــة .. ووعيــد

هزّ « الحارث » رأسه ، وشمخ بأنْفه .. وأراد أن يُتابع طريقه ، وقد ملَّ من موعظة صاحبه ، فقال « عبدالله » على رسْلك يا « حارث » فلا تمضينَّ قبل أن تسمع تتمّة مقالتي ؛ إنّ من تمام الشكر للمنْعم سبحانه أن تقول عِنْد المشاهدة : ماشاء الله ... ، لأن الزرع في ريعانه والثمر فى نضوجه إنما حدث بمشيئة الله وحده ، وبقوّةٍ وتدبيرٍ من عنده سبحانه ... ، وأيْضاً فإنك إن تَرْهُ وتفخر عليَّ بكثرة المالِ والولد فهذا ضرب من الغرور والوهم ، لأن الذي أعطاك قادر على أن يعطيني خيراً مما أنْت فيه .. ، ويزيله عنك بجائحةٍ من السماء .. صواعق وأمطار ورياح .. ، أو يجففَ ينابيعه فيبْبس كل عودٍ مُخْضرّ .. ، فاتّق الله ولا تكفر .. ، وهذه آخر نصائحي لك ... ؛ ثم كان «عبدالله» هو السابق في مغادرة المكان هذه المرة ...

العقـابُ وسُوءُ المنْقَلـب ...

﴿ والله سريع الحساب ﴾ ...

دخل « الحارث » بستانه وهو ظالمٌ لِنَفسه ... ، ثم فجأة تلبَدت السماء بالغيوم السوداء ، وهبّت ريحٌ عاصف ، وأبرقت وأرعدت ... ، وهطل المطر كأفواه الْقِرَب ، وغرقت الأرض بالماء ... ، واشتدّت الرياح وأخذت تقتلع الأشجار ثم ترمي بها بعيداً ...

و « الحارث » كالمجنون الذي فقد عقله ... يهرول هنا وهناك ... ، وينظر إلى السماء في لهفٍ وضراعة .. ، ودموعه تنحدر كالسيل من عينيه .. ، ونشيجه يختلط بصفير الرياح ... ، وهاهو ذا يسقط أرضاً ثم يقوم وقد تلطّخت ثيابه بالوحول ... ،

وفي لحظاتٍ كانت الجنتان أرضاً بلْقعاً ... ، خاوية على عروشها ... ، الحطب والعيدان يملأ المكان ، ووقف « الحارث » مبهوتاً يضرب كفاً بكفٍ ويقول : ياليتني لم أشرك بربي أحداً .

وأطل « عبدالله » على جاره « الحارث » بعد أن هدأت العاصفة ، وقال :

– يا « حارث » هل آمنتَ بالله الحق ... !؟ إن الولاية له وحده ياجاري ... ؛ فهنيئاً للمؤمن ، دُنْيا وآخرة ، وتعْساً للكافر !!!

ذو القلبين ..؟

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ الله ولا تُطع الكافرين والمنافقين إنَّ الله كانَ عليماً حَكيما . واتّبع مايوحىٰ إليْكَ مِنْ رَبِّك إنَّ الله كان بما تعملونَ خبيرا . وَتَوكَّل على الله وكفى بالله وكيلا . ماجَعَل الله لِرَجُلٍ مِنْ قلبيْن في جَوْفه ... وما جعل أزْواجكُم اللاَّئى تُظاهِرُون مِنْهُنَّ أُمّهاتِكُم وماجعل أدْعِياءَكُم أبْناءَكُم ذلكُم قَوْلُكم بأفواهِكُم والله يقول الحقَّ وهُو يهْدي السبيل ﴾

[الأحزاب الآيات من ١ – ٤]

بُنـيّ العـزيز :

المسـلم الصغير ...

تطرق سمعك أحياناً عبارات وكلمات ، أو صور تخطر أمامَ ناظريك ، فتستوقفك في عجبٍ ودهشة ، خاصَّةً وأنك تعيش القرن العشرين بكُلّ مافيه من إنجازات حضارية ...

ولعلَّ بعض الوقائع والأحداث ، المقروءة أو المصورة ، تصدم فيك العقيدة الصافية ، والفطرة البريئة ، فتزعزعك بعض

الشيء ... ، أو أكثر من ذلك ، فتنجرف في تيّار جاهليَّة القرن العشرين ...

والجاهليّة – يابنيّ العزيز – واحدة على مختلف العصور والدّهور ، وإن تشكّلَتْ وتَغيَّرت في الصورة ، من عصْر إلى عصْر ...

وقصَّةُ اليوم (ذو القلبيْن) هي إحدى الصُّوَر الجاهلية التي مزَّق القرآن الكريم غشاوتها ، وهتك سترها ، وأزاح برقعها عن عيون الناس وقلوبهم ، لتظل رؤيتهم سليمة ، ورؤياهم واضحة ... ، وليدْحض الباطل بالحق ، إن الباطل كان زهوقا .

وإليك القصّـــة :

فِتْنـــة ...

كان « أبومَعْمَر » رجلاً من رجالات قريش المعدودين ، مُفَوَّهاً يحسن صناعة الكلام ، وينطق بالعبارة المحكمة التي تُفْحِم خصمه ، وتلجمه عن الجواب ...

ويُبدي من حضور الذهْن ، وسُرعة القوْل مايجعل السامعين والحاضرين في ذهولٍ ممزوج بالإعجاب ، مقرون بالإكبار .

مامن مرة حضر مجلساً إلّا وكان المسيطر فيه ، فهو المتحدِّث غير المنازَع ، والكل صاغون وكأن على رءوسهم الطير ...

لايتركونه يمْضي حتى يشبعوا ولايملُّوا .. ، يمسكون بِهِ كلّما حاول الانصراف ، ويتشبثون به ليستزيدوا من طُرفِهِ التي لاتنتهي .

وكان قوّالاً حافظاً ، قد وعت ذاكرتُه أخْبار الماضين ؛ إذ امتلأت بها جُعْبتُه ، واتّسع لها صَدْره ... ، يعرفُ كيف يعرضها ويجذب الناس إليْها ؛ فكان بهذا فتنةً من فِتنَ قريش في جاهليتها ...

وَجْهاً لِوَجْـهٍ مع الحـق ..

وجاء وَعْد الله ...

فابْتَعث رسُولَه « محمداً » – عليه الصلاةُ والسلام – هُدًى ونورا ... ، وأوْحى إليه بالقرآنِ بشيراً ونذيرا .. ، فراح يتلو آياته ، ويُبصّر الناس بحكمته ومضامينه ، ويبيِّن لهم ماهم فيه من ضلالة في العقيدة والحياة .

يدعوهم إلى عبادة الواحد الأحد ، الفرد الصّمد ، ويَنْهاهم عن عبادة الأصنام ، والعكوف عِلى الأوثان ...

ويستنهض هِمَمُهم وإنسانيتَهم ليتركوا عاداتٍ حياتيّةٍ ألفوها فكانتْ مضرَّةً لهم ، وأذًى عليهم ... ، وينهجوا في دنياهم نهجاً سويّاً سليماً ، يحفظ عليهم أُسَرهم ومجتمعهم ، ويترقّى بهم في مضمار الحضارة والمدنية ، ليكونوا خير أُمّةٍ أُخرجت للناس .

فاستجاب للحقّ أقلُّهم ، وأعرض عنه أكْثَرُهُم ...

وكان الإعراض في قسوةٍ ووحشيّةٍ وعَمَاء ، اشتدوا في إيذاء

المؤمنين ، وأمْعنوا في تعذيبهم والتَّضْييق عليهم ... ، وتعاموا عن رؤية الخيْر والفضْل ، وأصمُّوا آذانهم عن سماعِ كلمة الحق .

وكان « أبومعْمَر » في زُمْرة الجاهليين ...

وأنَّى لرجُلٍ فِتْنة أن يكون من أَهْل الهُدى !!

وأنَّى لرجُل أعماه الغرور أن يُبْصِرَ النُّور !!

فتولّى من مُنْطلق جَهْله وغروره يحرِّك لسانه في كل اتجاه ، ينال من كتاب الله وآياتِهِ ... ، ويصيب من رسول الله ﷺ وأصحابِهِ ...

ذو الْقــلْبيْن

وكان لبعض عباراته الرنّانة صدًى في نفوس الفارغين الخاوين ...

كالطبل تماماً ... منفوخ ضخم أجوف ... ، الضربة البسيطة فوقه تترك دويّاً هائلاً من غير حقيقةٍ بيّنة ، أو فعل صادق .

لكنهم على جهالتهم كانوا يتأثّرون ؛ فتشرئب أعناقهم ، وتتطاول رقابهم ، وتهذى ألسنتهم ... ، وتبطش أيديهم ...

وراحوا يرددون عن « أبي معْمر » بأنه إنسانٌ أريبٌ لبيب ، يفوق الناس العاديين ذكاءً وعقلاً ، وحكمةً ودهاءً ، قد أُوتى قلبيْن في صَدْره ... ، ومن ثم أطلقوا عليْه لقب « ذي القلبيْن » !؟

في « بـــدْر »

وخرج « أبو مَعْمر » مع الخارجين إلى « بدْر » في زفّةٍ وخِفّة ؛ تستحوذ عليهم عنجهيّة الجاهلية ، وكبرياء الغرور الأحمق ، ويحدوهم الأمل الكاذب ؛ يريدون أن يكذّبوا الله ورسُوله ...

وأبى كبيرهم « أبوجَهْل » إلا أن يأْتيَ مصرعَه وحتْفه ...

فعندما ٱلتقى الجمعان ، وٱلتحم الفريقان ... ، استنصر رسول الله ﷺ ربّه ، ودعاه بضراعةٍ وحرارة ؛ فأيّده بجنود من الملائكة مسوّمين ...

ودارت رحى المعركة ، وبدأت رءوس الكُفر تتساقط وتتهاوى ، والأشلاء تتناثر في كُلّ مكان ... ، والابدان تتخضّب بالدماء وتتعفّر بالتُّراب ، والموت الزؤام يحصد الرقاب حصد السنابل ، وحلّت الهزيمة النكراء بالمشركين ، فكانوا طوائف ثلاثاً – طائفة لقيت مصرعها ... ، وأخرى وقعت في الأسْر .. ، وثالثة ولّت هاربة .

خرافــة الجاهليــة

ولقد كان « أبومعمر » أوّل الهاربين ، الفارين بأبدانهم من الموْت ، فعندما رأى هوْل الموقف ، ومصْرع الكبراء والزعماء ،

ووقوع « أبي جَهْل » ممرَّغ الجبهة في التراب ، معفّر الجبين برمال الصحراء ، قد سالت دماؤه ، وانقطعت أنفاسه ، وخرس لسانُه ...

عندما رأى ذلك دبّ الذُّعْر إلى نفسه ، وأطلق ساقيه للريح ، طالباً للنجاة ... ،

ومن ثم قطع المسافة بين « بدرٍ » و « مكة » ، وهي طويلة بعيدة ، في ذهولٍ وشرود ، لايدري ليله من نهاره ، ماشياً على قدميْه ... ، قد غَفل عن ناقتِهِ ...

وكان منظره وسوء حاله مدعاة سُخْرية الناس والهزء بِهِ ، خصوصاً وأنّه دخل « مكّة » حافي القدميْن ... ، مُتَأَبِّطاً إحدى نعليْه ... يميل كالسكران يمنةً ويسرة ، فقد أنهكه الضّنى وأمضّه الألم ... ، وأذهله الخوْف حتى عن نفسه .

وحين سُئل عمّا هو فيه ، روى للسائلين أخْبار الفاجعة وأنباء النازلة التي حلّت بقريش ...

كانت أنفاسه متقطعة ، وعباراته متلعثمة ، وصوته متهدّجاً

ففوجيء الناسُ بما روى ...

ثم لطموا الخدود وشقّوا الجيوب وعلتْ أصْواتهم بالنّحيب والوَلْولة ، والصِّراخ والعويل ...

وقبل أن ينفضّوا من حوله إلى دُورهم بانتظار المزيد من التفاصيل والأنباء ، وقد كرهوا الرواية والراوي ، سألته إحدى النّسوة بسخرية ومرارة :

– وماذا تحمل تحت إبطك يا « ذا القلبيْن » !!! أيها الهارب الفارّ !؟.

عندئذٍ فقط تنبّه من غفلته ، واستيقظ من سُباته وأفاق من ذهوله وشروده ، وأدرك تفاهة غروره ... ، فألقى بالنّعْل وهو يقول بحسرةٍ وانكسار :

– نسيت ...

ومضى من بيْن الجموع لايلوي على شيء

وانطوتْ بهذا صفحة من صفحات الجاهلية ، وانحلّت عُقدة ، وهوى صنم ؛ وعرف الناسُ مدى افترائهم على الحق ، وتجنيهم على الحقيقة ، وأدركوا بعض الإدراك بأنه ﴿ **ماجَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ منْ قلبيْن في جَوْفه** ﴾

وصَدَق الله العظيم

[سورة الآحزاب – الآية ٤]

«لقمان» الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمان الحكْمة أَنِ اشْكُرْ لله وَمَنْ يشكُر فإنّما يشكُرُ لِنَفْسه وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ الله غَنيّ حميد . وإذْ قال لُقْمانُ لابْنه وهُوَ يعظُهُ يابُنَيَّ لاتُشْرِكْ بالله إنَّ الشّرْكَ لظُلْمٌ عظيم . وَوَصَّيْنا الإنسانَ بوالديْه حَمَلَتْه أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ وفصالُهُ في عامَيْن أَنِ اشْكُر لي ولوالديْكَ إليَّ المصير . وَإنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بي ماليْس لَكَ بِهِ عِلْم فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما في الدُّنيا مَعْروفاً واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أَنابَ إليَّ ثُمّ إلي مَرْجِعُكم فأُنَبِّئُكم بما كُنتم تعملون . يابُنَيَّ إنّها إنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدلٍ فَتَكُنْ في صَخْرةٍ أَوْفي السَّمٰاواتِ أَوْ في الأَرْضِ يأْتِ بها الله إنّ الله لطيفٌ خبيرٌ . يابُنَيَّ أَقِمِ الصلاةَ وَأْمُرْ بالمعروف وَانْهَ عن الْمُنْكَرِ واصْبِرْ على ماأصابَكَ إنَّ ذٰلك مِنْ عَزْمِ الأمور . ولا تُصَعِّر خدَّك للنّاس ولا تَمْشِ في الأَرْضِ مَرَحاً إنّ الله لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُور . واقْصِدْ في مَشْيِكَ واغْضُضْ من صَوْتِكَ إنَّ أَنْكَرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحَمير ﴾

صدق الله العظيم

[سورة لقمان – الآيات من ١٢ – ١٩]

« لُقْمـــــان »

ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في بضع آياتٍ معدودات ، وسُميت إحدى السُّور بآسمه .

ولقد بينت الآيات كيف أن الله تعالى وهبه الحكمة ، ثم بماذا وعظ « لقمان » آبنه في أمر العقيدة والإيمان والسلوك القويم في الحياة .

فمن هو ؟ وماهي قصتُهُ ؟ وماذا نستخلص منها ؟

هذا مانحن بصدده ، حتى إذا ماقرأْت القرآن – يابنيّ العزيز – ومرّت بك موعظة « لقمان » ، عرفْتَهُ ... ، وأدركت جوانب حكمته ، واتخذت من أسلوبه وفكره مدداً لك وذُخْراً .

والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

ففي قلب القارة الإفريقية وُلِدَ ونشأ الطفل « لُقْمان » ،

أَسْود البشرة ، أفطس الأنف ، غليظ الشفتيْن ، أجعد الشَّعْر قصير القامة ...[1]

وكان يغدو في الغابات ذات الشجر الباسق ، ويتسلق الجبال الوعرة ، ويطوف كثيراً ... ، حافي القدميْن ... نصف عارٍ ... ،

---

(١) أجمع الرواة على ذكر هذه الصفات .

لذا تَشققت قدماه واستغْلظ عوده ، فشبّ قويّاً متيناً .. ، كما زادتْهُ مواجهة الحيوانات الضارية صلابةً وجرأةً وإقداما .

وكان وهو في ميْعة الصّبا ، وفي أثناء تجواله ، دائم الفكر والنظر والتأمل ، في الطبيعة وحركة الكون ، والحيوان ، والطير ... وكل شيء يقعُ عليه نظره ويستلفت انتباهه .

بيْن النُبُوَّة والحكْمــة

وفي ذات يومٍ ، وبينما كان « لقمان » على عادته في تطوافه في الأدغال ، شعر بالإرهاق يتسلَّل إلى جسمه ويدبّ في أوصاله ، فجلس في ظل شجرةٍ ليستريح وليستعيد نشاطه ...

لكنّ النُّعاس غلبه ، فأطبق جفنيْه ، واستسلم للكرى ... وراح في سُبات عميق .

وجاءَه في منامه مَلَكٌ من عند الله تعالى يبشِّرهُ بالاختيار والاصطفاء ، وخيَّره بيْن النبوّة والحكمة ... ؛ فاختار الحكمة خوْفاً من أن لايطيق أعباء النبوة ...

وفتح عينيْه بعد ذلك ....

فإذا المرئياتُ والمشاهدات الحسيَّةُ هى هى ... ، ولكنّ نظرتَهُ إليها تبدلت وتغيَّرت ، وأحكامه عليها تجدَّدتْ ...

وشعر بأنَّ قلبه ورُوحه يسبحانِ في الوجود ويتجاوزانِ آفاقه المادية ...

وأحسَّ بالجمال ، وانتشى بالجلال ، فخرَّ ساجداً شاكراً .

العُبـــودية ...
وأُولـى التجـارِب

وقع « لقمانُ » أسيراً في أيْدي بعض اللصوص النخّاسين[1] ، فبيع في أسواق النخاسة رقيقاً مملوكاً ، وأضحى فاقداً لحرِّية الإرادة والاختيار والتصرُّف ...

وكانت تلك ، أُولى التّجارب الإنسانيَّة التي عاشها ، وتفجَّرت من خلالها حكمتُه ، وانبثقتْ منها كالفجْر السافر يبدد الظلام ويقمع السواد .

كما كانت مقدِّمة لتحرُّره من القيود والأغلال التي يرسف فيها ، ثم ارتقائه في مدارج المراكز الاجتماعية ، واعتلائه أرفع المناصب .

بوادرُ الحكمـة

لقد صبر على ماهو فيه من أذىً نفسيٍّ ، وتحمَّل هوان العبودية والرِّق ، بقلبٍ يضيء بنور الأمل ، والإيمان بالله ، بانتظار الفرج ...

---

(١) الذين كانوا يتاجرون بالرقيق .

وفي يومٍ طلب إليه سيِّده أن يمضي بشاةٍ فيذبحها ويأْتيه بأَخْبث مافيها ، فخرج « لقمان » بالشاةِ وقام بما عُهد إليه ، وعاد إلى سيِّده بقلب الشاة ولسانها ... ، فتبسَّم السيِّد في وجْه « لقمان » وأَدْرك المغزى والمعنى ؛ ثم زاده قُرْباً ومحبَّةً وعطفاً .

وبعد مضيّ عدة أيام طلب إليه السيّد أن يذبح شاةً أخرى ويأْتيه بأطيب مافيها ، ففعل « لقمان » ماطُلِبَ منه ، ثم حَمَل إلى السيد القلب واللسان أيْضاً !!! ؟

وهُنا نظر السيِّد إلى « لُقمان » في دهشةٍ وعَجَب ، ثم سأله عن سِرِّ ذلك التصرُّف ، وكيف يكون القلب واللسان الأخبث والأطيب في آنٍ واحد ؟!

وسواء كان هذا امتحاناً من السيِّد ، أم غير ذلك ، فإنّ حكمة « لقمان » في الإجابة قد ظهرت جليّةً ، إذ قال :

– إنهما ياسيدي أطيب شيءٍ إذا طابا ، وأخبثه إذا خبثا .

فارتفعتْ مكانة « لقمان » عند سيِّده ، إذ تحوّل عن معاملته معاملة العبد الرقيق ، ثم ظلَّ على تلك الحال حتى أذِن الله بالفرج ، وتحرر « لقمان » ...

القاضي في « بني إسرائيل »

ذاع صيته وانتشر في كُلِّ مكان ، وعُرف عنه القول الصائب ، والرأي الحكيم ، والتدبير السليم ....

وطوّحت به الأيام في كلّ مكان متنقلاً في أرجاء الأرض ، حتى استقرَّ أخيراً قاضياً في « بني إسرائيل » زمن « داود » – عليه السلام – .

فأعطى من ذوْب عقله وصفاء سريرته ونقاء ضميره أرفع الأمثلة في الحكمة وفصل الخطاب وفضّ المنازعات ؛ فازداد شُهرةً وارتفاع مكانةٍ وعُلوَّ مقام واحتراماً .

الولـدُ والوصـيَّة

تزوج « لقمـان » وأنْجب ...

وكانت أولى واجباته الأبويّة التربية الصالحة ، بالتوجيه السليم والنصيحة الخالصة ؛ فلما عقل ابنُه – بكْرُه – ، وصّاه بما رواه لنا القرآن الكريم في العقيدة والسلوك ، أما على صعيد العقيدة فقد نصحه بإخلاص العبودية لله وحده، وعدم الشرك لأنّه ظُلْم عظيم ، للنفس وللمجتمع ... ، ونبَّهه إلى أُصُول وقواعد العلاقة بيْن الولد وأبويْه إن كانا مشركيْن ، وجاهداه على أن يشرك مثلهما ... ، فالأوْلى متابعة الحق سبحانه ، لأنه إليه المرجع والمآل .

وبيّن له بعض الحقائق الأزليَّةِ الكونية ليربطه بالله وحده ، فالرزق والقدرة والسلطان المطلق ... كلها بيد الله – سبحانه – وليس للأبويْن ولا لغيرهما من أهل الأرض أى سيطرة !!

والطاعة لله تعالى بالشكر والحمد إنما مظهرها الأول في

الصلاة ، حيث يضع الإنسان أشرف عضوٍ فيه ، وهو جبهته ، على الأرض رمْز حمدٍ وعلامة شكر .

ولكي يكون السلوك في ميدان الحياة سليماً قويماً لابُدّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومواجهة أي انحرافٍ في المجتمع ... ، وهذا يقتضي الصبْر على الأداء والإيذاء ، وأن يكون التواضع في التعامل والمواصلة شعاراً ودثاراً ...

هذه النصائح – يابني العزيز – ، أو الوصايا ، قائمة دائمة مستمرة ، تقتضيك أن تُصغيَ إليها بأذنيْك وجوارحك ، وكل خلجةٍ في كيانك ، كي تهتدي إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم .

ولتكن قصة « لقمان » في تطوراتها ومراحلها حافزاً لك ودافعاً ؛

والسلام عليك .

سر القميص

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ قالوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فألْقُوهُ في الْجَحِيم . فَأرادوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُم الأسْفلين ﴾

[الصافات – ٩٧ – ٩٨]

﴿ قالُوا حَرِّقُوهُ وانصُروا آلِهَتَكُم إنْ كُنْتُم فاعلين . قُلْنا يانارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً على إبراهيم . وأرادوا بِهِ كَيْداً فَجَعلْناهُم الأخْسرين ﴾

[الأنبياء الآيات من ٦٨ – ٧٠]

وقال تعالى :

﴿ وجاءوا أباهُم عشاءً يبكون . قالوا يا أبانا إنّا ذَهَبْنا نَسْتَبِق وَتَرَكنا يُوسَف عِنْد متاعنا فَأكَلهُ الذئْبُ ومأأنتَ بِمُؤْمِنٍ لنا ولوْ كُنّا صادقين . وجاءوا على قميصه بِدَمٍ كَذِبٍ قال بل سَوَّلتْ لكُم أنفسكم أمْراً فَصَبْرٌ جميل . والله المستعانُ على مائصِفُون ﴾

[يوسف الآيات من ١٦ – ١٨]

﴿ قالُو تالله لَقَدْ آثَرك الله عَلَيْنا وإنْ كُنَّا لخاطئين . قال لاتثريب عليكُم الْيَوْم يغفر الله لكُم وهُو أَرْحَمُ الراحمين . اذْهبوا بقميصي هذا فَأَلقُوه على وَجْهِ أبي يأْتِ بصيراً وأْتوني بأَهلكُم أجمعين ﴾

[يوسف الآيات من ٩١ - ٩٣]

﴿ ولمّا فَصلَتِ العيرُ قال أبوهُم إنّي لَأَجِدُ ريحَ يُوسُف لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُون . قالوا تالله إنَّكَ لفي ضلالِكَ القديم . فَلَمّا أن جاء البشيرُ ألقاهُ على وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بصيرا قال أَلَمْ أَقُلْ لكُم إنّي أَعْلَمُ مِنَ الله مالا تَعْلَمون ﴾

صدق الله العظيم

[يوسف الآيات من ٩٤ - ٩٦]

الحبيبُ إلى قلْبِ « يعقوب »

كان « يوسف » أثيراً عند أبيه « يعقوب » - عليهما السلام - ، مقرَّباً محبوبا ، وذلك لما كان يتحلّى به منذ طفولته من صفاتٍ ومؤهلات ، وبما أسبغ الله تعالى عليه من فضْلٍ ، وبما وهبه إياه من كريم الأخلاق والسجايا الحميدة .

ولقد كان إخوتُه يلحظون ذلك ويتبيّنونه في العطف الزائد ونوعيَّة المعاملة فيتأثرون ويحقدون ، ويقولون : ﴿ ليُوسُف وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا مِنّا ونحنُ عُصْبة إن أبانا لفي ضلالٍ مُبين ﴾

أما أخوه الذي يعنونه فهو « بنيامين » - شقيقه لأُمِّه ، فقد كانا من أُمٍّ واحدةٍ هي « راحيل » .

الحُـلْم الحقيقـة !!!

في ذات ليلةٍ رأى « يوسف » في منامه حُلْماً عجيباً ... ، رأى أحد عشر كوْكباً من كواكب السماء ونجومها ، وكذلك الشَّمس والقمر ، يسجدون له ... ، بمعنى يتنزّلون من العلياء ويجتمعون بين يديه ...

فلجأ إلى صدر أبيه « يعقوب » يبثّه وساوسه ويسأله مستفسراً عن رموز ذلك الحُلْم ، وكان في سِنٍّ صغيرة ، لم يُدْرك بعد ولم ينضج .

فاحتضنه الأب الحنون ، وهدْهَدَ من رجفته وقُشَعْرِيرته ، ومَسَحَ على رأسه وصدره وقال له :

﴿ يا بُني لاتقْصُص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيْداً إن الشَّيْطان للإنسان عدوٌّ مبين . وكذلك ... يَجْتبيك ربُّك ... ويعلِّمُك من تأْويل الأحاديث .. ويُتمّ نعمتَهُ عليك وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويْك من قَبْل إبراهيم وإسحاق إن ربَّك عليم حكيم ﴾

ثم قام به إلى صندوقٍ يقبَعُ في إحدى زوايا البيْت ، ففتحه « يعقوب » واستخرج من قعره قميصاً أخضر اللَّون حريريّ الملمس ... ، وأمر « يوسف » بارتدائه تحت ثيابه بحيث يباشر

جلده ، وحذّره أن يَخْلعه ... ، وأنبأه أنه سوف يُبيِّن له في الوقت المناسب حقيقة هذا القميص وسرّه ...

سـرُّ القميـص

ومرّت الأيـام ...

و « يوسف » – عليه السلام – يزداد حُسْناً وبهاءً ، ويغترف من معين عطاء الله فضْلاً وخلقاً ، ويزداد حُبّاً من أبيه وإيثاراً ...

وفي نفس الوقت يزداد حقْد إخوته عليه ، ويهيج الشيطان كوامن الشر في أفئدتهم .

وكان « يوسف » بيْن الحين والحين يُلحُّ على أبيه في معرفة سر القميص الذي يرتدي ...

وفي ذات يوْم وقبل أن يغدر به إخوته ، ويأخذوه معهم للنزهة في البرّية وهم يُضمرون الشّر ... ، ثم يلقوه في غيابة الجُبّ ...

حدّثه والده « يعقوب » بِسرِّ القميص ، فقال :

– بنـي الحبيب ... ،

تعرف – ولاشكّ – ماكان من أمْر أبيك « إبراهيم » مع قومه الذين آثروا عبادة الأصنام على الواحد الديّان ، وماذا فعل « إبراهيم » بآلهتهم ، وكيف تحدى عقولهم حين علّق الفأس التي حطم الأوثان

بها في رقبة كبيرهم ؛ وبماذا أجابهم حين سألوه : ﴿ **أأنت فعلْتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم .. ؟** ﴾ قال لهم : ﴿ **بل فعله كبيرُهُم ..** ﴾ ﴿ **فاسألوهم إن كانوا يَنْطقون ...** ﴾

ثم أَجْمعوا أمرهم أن يحرقوه ... ، فجمعوا من الحطب أَكْواماً وجرّوا « إبراهيم » مربوطاً إلى وَسَطها ، ثم أَضرموا النّار ، فاتّقدت وٱلْتهبت وتصاعدتْ ألسنتُها حتى بلغت عنان السماء ...

وأرادوا بأبيك « إبراهيم » كَيْداً ، فردّ الله كيدهم إلى نحورهم ، ووقى نبيَّه وخليله ، إذ قال للنّار : ﴿ **يانارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ ... ، وبهذا تعطَّلت خصيصة الإحراق في النار ... ، عطّلها من أَوْدعها فيها ، وهو الله سبحانه وتعالى ...

لقد كان والدك « إبراهيم » – يابُنيَّ – يرتدي هذا القميص ؛ ...

وخَرَج من الأتون الملتهب سليماً معافى ليس به ضرر ولا أذى ، آيةً من آيات الحق ، وبيّنة من بيّنات الهُدى والإيمان ...

﴿ ... يأْتِ بصـيرا ﴾

وحرص « يوسف » – عليه السلام – على القميص حرصَهُ على نفسه وذاته ، فهو إرْثٌ من أبي الأنبياء « إبراهيم » – عليه السلام – ، وأيُّ إرْث !!!

ثم تمضي قصّة « يوسف » في تطوراتها وأحْداثها ، وتسلْسُلِ وقائعها ... ، يوحي كلُّ فصل منها بالعبرة والموعظة .

حتّى آعتلى – عليه السلام – مكانةً عاليةً في مصر ، وتبوَّأ مقاماً سامياً عند الملك ، فكان على الخزائن ، والمدّخرات أميناً قويّاً ، خازناً حاسباً يضبط الأمور ويحسن التصرُّف ...

ولجأ إليه إخوتُه ، وهم لا يعرفونه ، يطلبون الميرة[1] ، إذْ ألمَّتْ بهم وبغيرهم نازلة القحْط والجدْب ، فعرفهم ولم يعرفوهُ ... ،

ثم أَوْقع بهم ، لا إضراراً ولا إيذاءً ولكنْ سبيلاً إلى الرحمة ووسيلةً إلى إيقاظ الضمير ، والاتّعاظ بما سَلَف .

وأخيراً ... ، وبعد أَخْذٍ وردٍّ ، وذهابٍ وإياب ، ونَصَبٍ وعذاب ، عرَّفهم بِنَفْسه بعد أن شكّوا في أمره وقالوا له : ﴿ **أئنّك لأنْت يوسف** ... ؟ ﴾ فردَّ عليهم : ﴿ **أنا يوسف وهذا أخي قَدْ مَنَّ الله علينا إنّه من يتّق ويصْبر فإن الله لا يُضيع أجْر المحسنين** ... ﴾

وعرف مِنْهم ماجرى لأبيه « يعقوب » بعد غيابه ورحيله عنه ، وكيْف أنَّ الحزْن وطول البكاء وغزارة الدموع قد أضعفت بصره إلى حدِّ العمى ... ، فقال « يوسف » لإخوته – وقد آن للقميص أن يلعب دوره من جديد – :

﴿ **اذهبوا بقميصي هذا فألْقُوهُ على وَجْه أبي يأْتِ بصيرا** ... ﴾

---

(١) الميرة : الطعام ، وقد جاء في القرآن ﴿ ونمير أهلنا ﴾

البشـــير

حَمَلَ الإخوة القميص ومضوا به إلى ديارهم ...

وظلت قافلتُهم في سعْيها حتى قاربت المساكن ... وأطلَّتْ على الدُّور ... ، عندئذٍ ، وقبل وصولهم ... ، تهلَّل وجْه « يعقوب » بالسُّرور وراح يجول في أرجاء البيْت وهو يقول : ﴿ **إنّي لَأَجِدُ ريحَ يوسف** ... ﴾ وأشْتَمُّه عن بُعْد ؛ فقال له من في البيْت : ﴿ **تالله إنَّكَ لفي ضلالك القديم** ﴾ وماتفتأتهيم في هواك ؛ اكْفُف وآسكُت ولاتدع للوهم سبيلاً إلى قلْبك ونفسك ...

﴿ **فلمّا جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وَجْهِهِ فارْتَدَّ بصيرا** ... ﴾

وحين وصل الإخوة ، وترجّلوا عن رواحلهم ، ودَخَل البشير منهم الذي يحمل القميص على أبيه ، ناوله إيّاه ... ، فَأَخَذَهُ بلهفةٍ وشوق وراح يشمُّه والدموع تنهلُّ من عينيْه فتمسحُ غشاوة السنين وسحابة الحزن والأسى ؛ ثم فتح عينيْه .. ! وقال للجميع ، لأبنائه ولأهله الذين لاموهُ على شعوره وإحساسه : ﴿ **ألم أَقُلْ لكُم إني أعلم من الله مالا تعلمون** ... ؟! . **قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إناكُنّا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هُو الغفور الرحيم** ﴾

اجتمـــاعُ الشَّـــمْل

ونهض الجميع مسرعين خفافاً باتجاه أرض مصر ، يحدوهم الشوق ... ، فلما وصلوا استقبلهم « يوسف » أحْسن استقبالٍ وأحْفاه ...

وردّوا بدوْرهم على إكرامه وعَفْوِهِ بأَنْ خرّوا له ساجدين[1] تعظيماً واحتراماً ، فتذكر « يوسف » رؤياه ... وقال لأبيه :

﴿ يا أَبَتِ هذا تأْويل رؤياي من قبل قد جَعَلَها ربي حقاً ... ﴾

واجتمع الشَّمْل المتفرّق على خيْر ؛ وصَدَق الله العظيم ..

* * *

أصحاب القرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ واضْرب لَهُمْ مثلاً أَصْحاب القرية إذْ جاءَها المرْسلون . إذْ أَرْسلْنا إليهِمُ اثنيْن فكَذَّبوهُما فَعَزَّزْنا بِثالثٍ فقالُوا إنَّا إلَيْكُم مُرْسلُون . قالوا : ما أَنْتُم إلاّ بشر مِثْلنا وما أَنْزَل الرَّحمنُ مِن شيْءٍ إنْ أنتُم إلاّ تَكْذبون . قالُوا : ربُّنا يعْلَمُ إنّا إلَيْكُم لمُرْسلُون . وما علينا إلاّ البلاغُ المبين . قالُوا : إنّا تطيَّرْنا بكُم لئِنْ لم تَنْتهوا لَنَرْجُمَنَّكُم ولَيَمَسَّنَّكُم منّا عذاب أليم . قالوا : طائِرُكُم مَعَكم أ إنْ ذُكِّرتم بَلْ أَنتُم قَوْمٌ مُسْرفُون .

وجاءَ مِنْ أَقْصى المدينة رجُل يسْعى قال : يا قَوْمي اتّبعوا المرْسلينَ . اتّبعوا من لا يَسْأَلُكُم أَجْراً وهُم مُهتدون . وما لي لا أَعْبدُ الّذي فطَرني وَإليْه ترْجَعُون. أَ أَتَّخِذُ مِنْ دونِهِ آلهَةً إن يُرِدنِ الرَّحْمنُ بِضُر لا تُغني عَنّي شفاعتُهُم شَيْئاً وَلايُنْقذون إنّي إذاً لَفي ضلالٍ مبين . إنّي آمنْتُ بربّكم فَاسْمَعُون . قيل : ادْخُل الجنَّة . قال : يا ليْتَ قَومي يعلَمُونَ بما غفر لي ربّي وجَعَلَني من المُكْرمين . وما أَنْزَلْنا على قَوْمه مِنْ بعْده مِنْ جُنْدٍ من السَّماءِ وما كُنّا مُنزلين . إنْ كانت إلا صَيْحَةً واحدةً فإذا هُم خامدونَ . يا حَسْرةً على العبادِ ما يَأتيهم من رسُول إلا كانوا بِهِ يستهزءون ﴾

سورة (يٰس) الآيات : [١٣ – ٣٠]

يا حسرةً على العباد !!

ويا أسىً على الخلْق الّذين يكذّبُون رُسُلَ الله ، ويهزءون بأنبيائِهِ ، ويُنكرون الحقّ ... ، ويحيدون عن الصّراط المستقيم ... ، فأولئك مأواهم جهنَّم وبئس المصير ، لهُم في الدُّنْيا خِزْى وفى الآخرة ... عذاب أليم .

فيا مَعْشر « قُرَيْش » لاتكُونوا كالّذين خَلَوْا مِنْ قَبْل ، كأصْحابِ الْقَرْية ... ، الّذين جاءَتْهُم رُسُلنا بالحقّ ، فكذبوهُم ، وعتوْا عَن أمر ربِّهم ... ، فأخذتْهُم الصَّيْحة فإذا هُم خامدون .

حبيب النَّجّار[1]

ففى قَرْيةٍ ، أو بالْأحْرى مدينة كبيرة[2] ، يحكُمها مَلِك مُتَغَطْرس جَبّار ، انْحَرف بشعْبِهِ وقومِهِ عن عبادةِ الله الأحد ، الفرْد الصّمد ... ، كان « حبيب النجّار » قد آلْتزم سبيل الرّشاد ، ورسخَ فى قَلْبِهِ وعقْلِهِ ماورثه عن الآباء والأجْداد ، وأخْلص ذاته لله – سُبْحانه – ، ولمَ يجرفْه تيّار الطغيان وإعْصار الكُفْر ، واستمْسك بالعروةِ الوُثْقى ؛ وأضْحى عَلَماً مُفْرداً ... ، لا يفتأُ عن دعْوةِ الملك الطاغية إلى الهُدى ، ويُبصّر الناس بعاقبةِ الضلال ...

---

(١) حبيب النجار : اختلف المفسرون والمحدثون اختلافاتٍ شتى حَوْل اسمه وحِرفته ، واخترت الأرجح .

(٢) يقال إن القرية – أو المدينة – هى « إنطاكية » وقد طعن المحققون فى ذلك ، ونحن لايهمّنا المكان ولا الزمان بقدر ماتهمنا الواقعة .

لكن (المجتمع) كُلَّه كان فى نجوةٍ عن كلمةِ « حبيب » ، ولم يأبه له الناس ، ونعتوه بنعُوتٍ شتّى أقلّها سُخْرِيةً وهزْءاً: الجنون .

ولم يكن « حبيب » مجنوناً ولا معتوهاً ولا مسْحورا ... ، بل كان عُنْواناً للعقْل الراجح ونصاعة الضمير ويقظة الوجْدان ...

ولم يكن بالّذى يضعف وَيتَراخى فينْهزم من الجولة الْأُولى ، أو الثانية أو الثالثة ... ، بل كان بما أُوتيه من إيمانٍ عميق وحلْم وأناة مُداوماً على نداء الحقّ لا يَكلُّ ولا يملّ ... ،

حتّى مَلَّ الناس أَنْفُسُهُم !!

العُــزْلة

اشتدت وَطأَةُ الناسِ على « حبيبٍ » بالعذاب المهين ، بالسَّبِّ والشَّتْم والضَّرْب ، ومن قبْل ذلك المقاطعة ...

وجاءَه جلاوزة[1] الملك الطاغية فأجبروه على غَلق متجرِهِ وباب رزْقه ، وهدّدوه بالْقَتْل إنْ هُو آستمرَّ في (إفْساد) الناس !!؟

وخرج « حبيبٌ » من بلدِهِ ... من دكانِهِ ... من بيْتِهِ ... ، وآوى إلى غارٍ يقع في ضاحيةٍ قريبة ، تكتنفها الغابات والأشجار المثمرة ؛ فاتَّخذ من الغار مَسْكناً ومَعْبداً ، ومن الغابة وطيورها وحيواناتها مَطعماً ومأكلا ، ومن فضائها الرحْب مِحْراباً يُناجي فيه ربَّه ، ويشْكو إليه – سبحانه – إعراض الجاهلين ، واستخفاف الحاكم الطاغية

---

(١) الجلاوزة : الشرطة والحرس . مفردها : جلواز

بعقول الناس ، وسَحْقهم فى طاحون الهوى والمجون ، وتسخيرهم فى موْكب الهوان والفُتُون .

المرْسَـلُون

وإثْر ليلةٍ من ليالى مناجاة « حبيبٍ » ربَّه ، وقد فاضَتْ دمُوعُه ، وسبحتْ روحُهُ فى الملأ الأعْلى ، وصَفَتْ صفاء البدْر الفضيِّ فى كبِدِ السَّماء ... ، وقد أغْفى بعدها فى سُباتٍ عميق ، وتراءتْ له نِعَمُ الله تعالى وآلاؤه في رياضٍ نَضِرة ، وجنّاتٍ خَضِرة ...

إثْر تلك اللَّيْلة ، هَبَط القرية – المدينة – رجُلانِ زائران من غَيْر أهْلها ، « صادق » و « مَصْدوق »[1] ، فرأيا ما عليه الناسُ من عبادةِ الأوْثان ، والعكوفِ على الأصنام ، وانحلال وفساد ... ، وعاينا مواقع ظُلْمِ الملك الطاغية لِلناس ، واستبدادِهِ وبطشه ، وقسوتِهِ وجبروتِهِ ... ، فَشَمَّرا عن ساعد الجِدّ ، وأطْلقا صَيْحة الحقّ :..

وفوجيء الناسُ بدعْوةِ « حبيبٍ » تتجدَّد على لسانِ هٰذين الزائريْن ... ، فِى منتدياتهم وأسواقهم وبيوتهم ... وفى كُلّ مكان ... حتى بلغَتْ قَصْر الطاغية ...

فأحاطوا بهم ذات يوْم وَسألوهُم : من تكونون ؟ وما أنْتم ؟

﴿ فقالوا : إنّا إليْكُم مرْسلُون ﴾

---

(١) هناك روايات كثيرة تحكى عن اسميْن آخرين لهذيْن الرسوليْن ، ولكنّى آثرْتُ اعتماد « صادقٍ » و « مصدوق » لأن المناسبة والواقعة أقرب معهما إلى التطابُق .

واشْتَدَّ هَوْل المفاجأة على الناس وملِكِهم ... ، لقد كانوا من قَبْل لا يرضون بـ « حبيبِ النجّار » داعية ومصلِحاً ، وهاهُم اليوْم إزاء رَجُلَيْن يقولان بِأَنَّهما رسُولان عن عِنْد الله ، فهذا أمْر عَجَب ، وقضيَةٌ كُبْرى !!!

ولقد كان شأنُ أهل القرية – المدينة – كشأْنِ أُممٍ خَلَتْ ، تَعرف الذات الإلهيّة حق المعرفة ، لكنّها تحْتَ وَطأَةِ وسْوسةِ إبليس ، واتبّاع الهوى ، واستبدَاد السُّلطان ، تنحرف عن الحقّ ، ثُم تقيم للطواغيت تماثيل وأَنصاباً ، فإذا ما سُئِلوا عن بِدْعتهم هذه ، وضلالتهم تِلْك ، قالوا : ﴿ **ما نعبُدهُم إلّا ليُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى** ﴾ !!؟ كما كانوا يعجبون أن يأتيهمُ رسُل من البشر ... من معدنهم وطينتهم !!؟

لذا ...

قال الملك والناس ، من أصحاب القرية – المدينة – لـ « صادق » و « مَصْدوق » :

﴿ **ماأَنْتُم إلاّ بَشَرٌ مِثْلُنا وما أَنْزَل الرّحْمٰن من شَيْء إن أَنتُم إلاّ تكذبون** ﴾

الجـدلُ والحـوار ...

وكظم الرسُولان : « صادقِ » و « مصدوق » غيْظ الاتهام بالكذِب ، ودخلا مع الطاغية وأرباب الكُفر فى جَدَل وحوار ، من غير تَشنُّج ولا آنفعال ، وردّا بحكْمةٍ ورويّةٍ ومنطق ، فقالا :

﴿ربُّنا يعْلم إنّا إليْكم لَمُرْسلون﴾ !! فالعلْم فى هذا لله وحده ؛ وليْس لِبشَرٍ أن يدَّعيه ..! فأُفْحم القوْم ، بُهتُوا ... ، ثم آنفضُّوا .

وأقام الرسُولان : « صادق » و « مصدوق » أسْواقاً عند كُلّ منعطفٍ وشارع وسوق ، حيْث يكتظ الناس ويكثرون ، يَدْعُوانِ إلى الحقّ وإلى الصراط المستقيم ، ويرفعانِ عن أعين الشعب غشاواتِ الجهْل والضلالة ... ، فى محاولةٍ للتبّصرة والهداية ...

لكنّ السّواد الأعظم من النّاس ، وأصحاب المصالح ، وذوى النفوذ ، وخصوصاً الملك الطاغية صاحب الأمْر والنَّهْى ضاقوا بالرَّسُولَيْن الكريمَيْن ذرْعاً .

التهديد والوعيد

لقد أَحَسُّوا بأَنّ الكلمة الصادقة ، المؤيَّدة .. ، المدعومة بالحكمة والمنطق ، على لسانِ « صادق » و « مَصْدوق » ذاتُ خَطَرٍ وأَثَر ، وأنها توشك أن (تعطّل) عليهم منهجيّتهم الهوائية ، وانحرافيتهم ولذاذاتهم ... ومصالحهم ... ، فتشاءَموا ، وقالوا :

﴿ إنّا تَطيَّرْنا بِكُم ... لَئنْ لم تنْتهوا لَنَرْجُمَنَّكُم وَلَيَمَسَّنَّكُم مِنَّا عذابٌ أليمٌ ﴾ .

قيل لهم هذا التهَديد والإنذار بالوعيد على رءوس الأَشْهاد ، كما أُعْلن على الملأ والناس فى كلّ مكانٍ لينفضُّوا مِنْ حوْلهم ، ويذروهم فِى فراغ وخواء ...

فقال الرسولان :

عجباً لكُم أيُّها الغافلون الجاهلون ... تتطيرون وتتشاءَمون من النُّور وأنتم والغون فى ظلام هالك وسواد حالك !!! تتطيّرون وتتشاءمون من الخير وأنتم معدن الشّر وبؤرة الفساد !!!

﴿ قالوا : طائِرُكُم معكم ﴾ قد عشَّش وباض وأفرخ فى قلوبكم ونفوسكم ، وفى حنايا جوانحكم ... ، ثُمّ تدعُون زُوراً وبُهتانا !!!

« حبيب » يسعى ...

وعلم « حبيب النجّار » بما يحدث فى القرْية – المدينة – ، وما يموج فيها من تَجاذب وانفعالات فجاء على عَجَلٍ يسعى ، مبادراً لا ينى ولا يتأخّر ... ، إنها – ولا ريْب – فرصة تتجدّد للهداية ، وهُو الحريص – كل الحرص – على قومه وأهْله من أن يظلّوا على الأوْثان عاكفينْ ، وفى وُحُول الجاهلّية والرذيلة قابعين مُلَطّخين ،

فناداهم من جديد :

﴿ **قالَ : ياقَوْمِ اتّبعُوا المرْسلين** ﴾ الذين جاءوكم بالصِّدْق والحقِّ من الله تعالى ، إذ لَمْ أَكُنْ لكُم من قبْل سوَى داعيةٍ رأى السَّبيل القويم بنور الإيمانِ واليقين فاهتدى ... ، فكذّبتمونى وآتهمْتمونى ... ثم زَجَرْتمونى وتوعّدتمونى بالوعيد الشديد ، وأكرهتمونى على الخروج من بيْن أظْهركم ... ، وظَنَنْتُم بى ظنَّ السوء ...

أما هٰذان فَرسُولان مبعوثان ، فَ ﴿**اتّبعوا من لا يَسْألُكُم أجْراً** ﴾ ولاثمناً ولا بَدَلا .. ، ولايطلبان نَفْعاً ولا كسْبا ... ﴿ **وهُمْ مُهْتدون** ﴾

فقال لهُ أرهاط الكُفْر ورءوس الجهْل :

أمازلْت يا « حبيبُ » على ضلالك القديم !؟ كُنّا نتصور أنّك قد آنتهيْت من دائك وشفيت من مرضك ، وتخلّصْت من أوهامك !؟

أمازلْت تَدعونا لِتَرْك آلهتنا واتباع إلٰهك !؟

فقال : ﴿ **وما لِىَ لا أَعْبُدُ الذى فَطَرنى** ﴾ والذى خلقنى فسوانى .. ؟ فهلاّ أَدْرَكْتُم عقُولكُم وقلوبكم فاستنقذتموهما قبْل أن يفوت الأوان ؟! وإليه – سبحانه – تُرْجعُون ؛ فيكون الحساب والعقاب ، ولاتَ ساعة مَندم ؛ فعجِّلُوا ياقومِ بالتَّوْبةِ قبْل الفوْت إنى لكم من الناصحين .

وآسْتَمَرَّ الحوار ...

واشْتَدَّ ساعدُ « حبيب » فى التَّغَلُّب على منطق الجُهلاءوآلِتواء سبيلهم ، فقال لِقَوْمِهِ : – ياقوْم ... ببساطةٍ مُتناهية ... وكلمةٍ واضحةٍ صادقة ... أُريدُ أَنْ أَحْسم الموْقف : أَأَتَّخذُ من دونِهِ – سبحانه – آلهةً ، مِنْ حجارة ضمّاء جامدة ، بكماء خرساء طرْشاء ... ، لاتَضُرّ ولا تنفع ... لاتنطق ولا تَسْمع ... وَ ﴿**إِنْ يُرِدْنِ الرحمٰنُ بِضُرّ لا تُغْن عنى شفاعتُهُم شيْئا ... ولا يُنْقِذون**﴾ فكيْف تريدوننى أَنْ أُقْلع عن الحق والهُدى وأَرتمى معكم فى وادى الهوى والجهالة ﴿ **إِنّى إذاً لفي ضلالٍ مُبين** ﴾ وجنونٍ صُراح ... وعماوة وغباء ...

لقد آمنْتُ وصَدَّقتُ ، وَثبتُّ ... ولن أُتزحزَحَ ... ؛ فَاسْمعوا قوْلى واتّبِعوا المرْسلين ! ﴿ **إِنّي آمنْتُ بربّكم فَاسْمعون** ﴾ ، وليس ربّى وحْدى بل ربكم وربّ آبائكم **الأوّلين** ، ربُّ المشارق والمغارب ... وربُّ السموات والأرض ، سبحانه وتعالى عمّا تصِفُون

« حبيبٌ » – الشهيد – ...

ولم يُطق الغافلون الجاهلون سماع شيءٍ بعد هذا ...

فثارَتْ ثائِرَتُهُم ، ونَفخ « إبليس » **فى نفوسهم** .. ، **فَالتهبتْ** ذواتُهُم بنارِ **الضغينة** والحقْد ... ، فقاموا إلى « حبيبٍ » ينالُونه بأيديهم وأَرْجُلهم ... وأَسْنانهم ... ، بعد أن أُفحموا وعجزوا عن مُواجهةِ الكلمة الصادقة ...

ووقع « حبيبٌ » أَرْضاً ... ، وراحُوا يدوسونَهُ بِأَقْدامهم ونعالهم ... حتى أَزْهَقُوا رُوحَهُ الطاهرة ... ولفظ أنفاسه ...

صَيْحة واحدة

وقَبْل أن تمتد أَيْدى الكفرة المجرمين إلى « صادق » و « مصدوق » بالْأَذى والسُّوء ، صَدَرت الإرادة الربانيَّة من فَوْق السماوات العُلى إلى « جِبْريل » – عليه السلام – بمعُاقبة الآثمين ، عقاباً دُنْيويّاً يكُونُ عِبْرَةً للناس مِنْ بَعدهم

ولم يَكُن أمر العقاب يحتاجُ إلى جيشٍ من الملائكة – جُند السّماء – ، ﴿ **وما أَنْزلْنا على قومِهِ مِنْ بَعْدهِ من جُنْدٍ من السَّماءِ وما كُنّا مُنْزلين** ﴾

لمـــاذا ؟

لأن « جِبْريل » – عليه السلام – قد صاحَ فيهم كالإعصار .. أو التيّار الصاعق .. فتدكدَكت بيوتهم ومنازلهم ... وانهارت قصورهم ... وآقتلعتْ أشجارهم ... وتهاوت شواهقُهم ... ، فى لحظةٍ واحدة ... بل فى أقَلّ من ثانية ...

﴿ **إنْ كانتْ إلاّ صيْحةً واحدةً ... فإذا هُمْ خامدون** ﴾

« حبيب » فِي الجنَّـة ...

﴿ **قيل : ادْخُلِ الجنّة** ﴾ يا « حبيب » جزاء ما آمنْت وصدَّقْت ووفَّيْت .. وأيُّ جزاء !!!؟

إنَّهُ نعيم الجنّة ..!

ذلك النّعيم الذى كان يُوعَدُ بِهِ ، فيراهُ ببصيرتِهِ قَبْل أن يُدْركه بَصَرُه ... ، يراهُ بنُورِ القلْب.المؤمن .

فماذا قال فيه « حبيب » بعد أن عاينَهُ ، وتَمتّع فيه !؟

﴿ **قالَ : ياليْتَ قَوْمى يَعلَمُون بما غَفَرَ لى ربّى وجعلنى مِنَ المكْرَمين** ﴾.

وصَدَق الله العظيم .

* * * *

بقرة بنى إسرائيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ : إِنَّ اللهَ يأْمُرُكُم أَنْ تَذْبَحُوا بقرةً . قالُوا : أَتتخِذُنا هُزوا ؟ قال : أعوذ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين . قالُوا : ادْعُ لنا ربَّكَ يُبَيّن لنا ما هي ؟ قال : إِنَّهُ يقول إِنّها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بِكْر ، عَوانٌ بَيْنَ ذلك ، فافْعلُوا ما تُؤْمرون . قالُوا : آدْعُ لنا رَبَّكَ يبيِّن لنا ما لَوْنُها ؟ قال : إِنَّهُ يقول إِنَّها بقرةٌ صَفْرَاءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظرين . قالوا : آدْعُ لنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لنا ما هِي ؟ إِنَّ البَقَرَ تشابَهَ علينا . وإِنّا إِنْ شاءَ الله لَمُهتدُون . قال : إِنَّه يقولُ إِنَّها بقرةٌ لا ذلُولٌ تُثِيرُ الأرضَ ولا تَسْقِى الحرْث ، مُسلَّمةٌ لاشيَةَ فِيها ، قالُوا : الآنَ جِئْتَ بالْحَقِ ، فَذَبَحُوها ... وما كَادُوا يفْعَلون . وَإِذْ قَتَلْتُم نَفْساً فَادَّارَأْتُم فِيها والله مُخْرِجٌ مَا كُنْتُم تكْتُمُون . فَقلْنا آضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ... كَذَلِكَ يُحْيى اللهُ المَوْتى ويُرِيكُم آياتِهِ لَعلَّكُم تَعْقِلُون ﴾ .

سورة البقرة الآيات : [٦٧ - ٧٣]

بنيّ العـزيز :

هل قَرَأْتَ الآيات الكريمة جيِّداً ؟ وهَل تَمعنتَ فيها وفى مقاصدها ومدلولاتها ؟ ومِحْورها وهَدَفها ؟

باللهِ عَلَيك ... أَعِدْ قَراءتها قراءَةَ تدبُّر ، حتى تستقطب عقلك وقلبك ، وتتمرْكزَ فى أعماق وجدانك ، وحتى لاتكُون من الّذين زَجَرَهُم الله تعالى زجْراً عنيفاً بقوله : ﴿ **أَفَلَا يتدبَّرون القرآن !!! أَمْ على قلُوبٍ أقفالُها !!!؟** ﴾

بنيَّ العـزيز :

سورة « البقرة » أَطْوَلُ سورة فى القرآن الكريم ، وأكثرها آيات ، تستغْرق جزءيْن ونيفاً ، أو ثلاثة أجزاءٍ إلاّ قليلاً ، وعددُ آياتها : مئتان وست وثمانون آية . (٢٨٦) ؛

وقد يخطر ببالِكَ أَنْ تَسأَل : لماذا سُمّيَتْ السورة بهذا الاسْم ؟ وقد حفلت بالكثير الكثيرِ من أحكام التشريع وآداب السّلُوك ، وعقيدة التوحيد ، وقصص الغابرين من الأُمَم وأنبيائهم ورُسلِهم !!؟

فمن أَجْل هذا طلبْتُ إليك – مُقسِماً – أن تعيد قراءة الآيات بتدبُّر ، لِأَن خاتمتها هى المحْور والهدف فى آنٍ معاً ، كما أنّها تلخّص ، وبإيجازٍ مُحكم ، بأَنّ الله وحده هو الذى يُحيى ويميت ، وإليه المصير ، وأن البعْث حقّ ، وأن الحساب حقّ ، وأن الجنّة حق ، والنار حق ، وأن الدنيا إلى زوال ، وأن الآخرة خَيْر وأبقى ... إلخ .

اقرأ وتدبَّر قوله تعالى : ﴿ **كذلك يُحْيِى اللهُ الموتى ...** ﴾

ولعلَّك فى تدبرك للآيات قد لاحظْت صورة التردُّد والتَّشَدُّد الّتي تمكّنت من قلوب بني إسرائيل ، آهتزاز الإيمان بالله فى أفئدتهم – واضطراب اليقين ...

والآن ، هيا إلى القصة ...

غِنىً وبُخْل ...

كان أَحَدُ شُيُوخ بنى إسرائيل – على عَهْد سيدنا « موسى » – عليه السلام – غنيّاً ، واسع الثروة ، عريض المال ، ولكنّه كان بخيلاً ، شَديد الحرْص ، ولقد كان بُخْلُهُ حتى على نَفْسه – . يقتنى ويدّخر ويكنز من غَيْر أن يتمتّع بنعمة الثروة التى أسبغها الله عليه ، ورزقه إياها ... ، لايبالى بطعامٍ طيب شهىّ ولا بلباسٍ بهىّ ، ولا بِصِلةٍ يَنْفَحُ بها ذويه وأَهْله ... ليحمدوه ويحبُّوه .

لم يتزوّج ... فلم يُرْزق بولد ... ، ولا ندرى هل كان يتحسّر على هذا الحرمان ، أم كان راضي النَّفْس بمنْ لايشاركه ماله ؟!

وكان له أولادُ أَخٍ فقراء ، قد أذلّتهم الحاجة ، وأتعستْهم المسْغبة ، يتودَّدون إليه ويحاولُون التقرُّب منه ليجود عليهم بالقليل الذى يساعدهم على مواجهة أعباءِ الحياة ، ولكنَّه كان فى نَجْوةٍ عَنْهم ... ، كأنهم غُرباء ...

فكانوا يتمنون موته ليرثُوه ، والخلاص منه ليحوزوا مالهُ ، ويمتّعوا أنْفُسهم وأهليهم ...

الجريمـة الغامضـة ...

وطال بالشيخ العُمُر ، وآمتدّت به سنين الحياة ...

وكان واحدٌ من أبناءِ أخيه شرِّيراً بطبْعه ، سيىء الخُلُق ، فاسد الضمير ... ، زاده الفقْرُ وَغنى الْعَمّ سوءاً على سوء ...

وفي ذات ليْلةٍ اشتعلتْ في قلبه داوفع الجريمة ، ووسْوس له الشَيْطان أسبابها ، وزيَّن له نعيم الإرْث العريض والمال الجمّ ...

فقام إلى بَيْت عمِّه ، متستِّراً بسواد الليل وظلامه الدامس ، وتَسلَّل إلى داخل المنزل ، تَلْمَعُ في يده سكينٌ حادّة النّصْل ...

واقتربَ من الفراش على مَهْلٍ ، ثُمّ وَضَع السكين على رقبة النائم الآمن ، وذبحه من الوريد إلى الوريد ...

وبعد أن بَرَدَتِ الجثّة الممدّدة ، الغارقة في الدَّم ... ، احتملها الجاني وألقاها في الطريق العام ، وعاد أدْراجه ، وكأنه لم يفعل شيْئاً .

من الجانـــي ؟

وأَصْبَحَ الناس ، وغدوا من دورهم إلى أَعْمالهم ... ، فرأوا جـثَّة الشيخ ملْقاةً فى الطريق فتجمَّعُوا حَوْلها وتجمْهروا ... ، وكان مِمَّنْ حضر إلى المكان ابن الأخ القاتل ... ، فَصَرَخ وبكى ... ولطم وصاح ... ، فى تَمْثيلٍ بارع ، كأنّه فقد عزيزاً غالياً ...

وتحيرَّ الناسُ ، وتساءلُوا ... ، وبحثوا وفتَّشوا ... لعلَّهم يعثرون على القاتل الجانى ، ولكن من غَيْر جَدْوى .

ثم قال قائل منْهم :

لِنَذْهب إلى نَبِىِّ الله « موسى » – عليه السلام – فقد نجد لديْه مايجلو غوامض الحادث الأليم . فأتوهُ فى جَمْهرةٍ ومعهم ابن الأخ – القاتل – وعرضوا عليه الأمر ، فطلب إليهم أَنْ ينصرفوا ويعيدوا البحْث ، كما عَزَم عليهم أَنْ يدقّقوا ويُخلِصُوا النيّة ...

فقال قائلهم :

– يانبىَّ الله لقد أتعبنا أَنْفُسنا فى الْبَحْث والتنقيب ، ونَحْن جادون فى معرفة غوامض هذه الجريمة ، والتوصّل إلى الجانى ... ، فآسأل ربَّك أن يهديك ويهدينا إلى الحق ، وسواء السبيل

﴿ إنّ الله يأْمُرُكُم أَنْ تَذْبحُوا بَقَرة !!! ؟ ﴾

فَٱسْتَمْهَلهم « موسى » – عليه السلام – ، حتى جاءَهُ الوحْى من ربِّه – سبحانه – ، فلمّا عادوا قال لهم :

﴿ إنّ الله يأمُرُكم أن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾

فَدُهشُوا من الجواب ، وظنُّوا أنَّ « موسى » – عليه السلام – يهزأ بهم ويسخر منهم ، إنّهُم يَسْألُونه فى أمر جريمة قائمة ماثلة ، فيردّ عليْهم هذا الرّدّ البعيد ... الغريب ...

فقالوا له : ﴿ أتتّخِذُنا هُزُوا !!؟ ﴾

ف ﴿ قال : أعُوذُ بالله أن أكونَ من الجاهلين ﴾ الّذين يحيدون عَنْ أمْر الله ووحْيه ، أو أسْخَرَ من أهلى وقوْمى وعشيرتى ، وكَيْف أفعل ذلك وأنا الذى اسْتَنْقَذَهم مِنْ تسخير « فِرعوْن » لهُم وظُلْمِه إياهم ... ، معاذ الله ياقوم ... وإن فى الأمر لَحِكْمة .

الشكُّ والمراوَدَة ...

ولوْ أن قَوْمَ « موسى » من بنى إسرائيل قد أصاخُوا بقلوبهم وأسماعهم لِوَحْى الله لسَهُلَ الأمر واخْتصِرتْ مسافة الزّمن ، وبان وَجْهُ الحق ...

لكنّ القوْم أُشْربوا فى قلُوبهم الشّكّ والتردُّد ، وطبعُوا على المراودة ... والنّفاق ؛ فسكتُوا قليلاً على مضضٍ وكُرْهٍ ، ثم قالوا ل « موسى » :

﴿ ادْعُ لنا رَبَّكَ يُبَيِّن لنا ماهي ؟ ﴾

﴿ قال : إنه يقُول : إنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكْر عوانٌ بيْن ذلك ﴾[1]

وظَنَّ « موسى » – عليه السلام – أنّهم قد اكْتفوا بهذا البيان ، فعقّب قائلاً :

﴿ فَافْعلوا ما تُؤْمرون ﴾

غَيْر أنّهم آزدادوا تساؤلاً ، تَلُفُّهُم دوّامة الشّك ؛ فقالوا :

﴿ ادْعُ لنا رَبَّك يُبَين لنا مالوْنها ﴾!!؟

فَصَبَر عليهم « موسى » – عليه السلام – ، ثم قال :

---

(١) يقول الطبرى : الفارض المسنة الهرمة ، والبكر الصغيرة التى لم يقربها الذكر ، والعوان الوسط بين الصغيرة والكبيرة ، وهى نَصَف قد ولدت بطنا بعد بطن .

﴿ إنّه يقول إنها بقرةٌ صَفْراء فاقعٌ لَوْنها تَسُرُّ الناظرين ﴾

وإذا بهم من جديدٍ يغْرقون فى الحيْرة والتردُّد ، ويسألون :

﴿ ادْعُ لنا ربَّك يُبَيّن لنا ماهِي ؟ إنّ الْبَقَر تشابَهَ علينا . وإنّا إنْ شاء الله لَمُهتَدون ﴾

عجيب !!!

أَبَعْد كُلّ هذا البيان يقولون : إنّ الْبَقَر تشابَهَ علينا ...

والأعجب أَنْ يقولُوا – أَخيراً – : وإنّا إن شاء الله لمُهْتَدُون ...

ولو أَنَّهم أَذْعَنُوا للمشيئة الإلهية منذ اللحظة الأولى لكانوا أَوْلى بالهداية والرِّفْق ، ولكنّهم شَدّدوا فَشَدَّدَ الله عَلَيْهم ...

التَّشْـــديد ...

وخَرَج القوْم من عند نبىِّ الله « موسى » – عليه السلام – يبحثون عن بقرةٍ ذات مواصفاتٍ معينةٍ محدّدة ، فُرضتْ عليْهم من ذواتهم ...

فسعوا شرقاً وغرباً باحثين ، يطرقون باب كُلِّ صاحب ماشية ، حتّى وجدوا البقرة المطلوبة ، بعد جهد ولأْى وضنى .. ، عِنْد رجُلٍ لا يَمْلك غيْرها .

فطلبوها مِنْه ... ، لكنّه رفض أن يبيعها لهم ... ، ثُمّ أغروه بالثمن حتى بلغ أضعافاً مضاعفة ؛ وبالذّهب الخالص ... ، فقبل مُكْرهاً .

هذه الأدوار كلها أثّرتْ فى نفوسهم وزادتْهم بلْبلةً وحيْرةً وتردُّدا ... ، واضطراباً وتشكُّكا ... ، فلمّا آن أوانُ الذّبْح ارتعدتْ فرائصُهُم ، وارتجفتْ أيديهم ، وزاغت أبصارهم ، وبلغت القلوبُ الحناجر ...

﴿فَذَبَحُوها وما كادوا يَفْعَلُون﴾

الحكمة البالغة

وتمَّ الذَّبْح ...

وإذا أمْر الله تعالى من السّماء يقول :

﴿ اضربوهُ بِبَعْضها ... ﴾[1]

فأخذوا بضعة من البقرةِ المذبوحة ومسُّوها بجثّة الشيْخ القتيل الممدّدة ، مسّاً عنيفاً يشبه الضّرْب أو يقاربه ... ،

فإذا بالميت يحيا ... ، ثُمَّ يقف على قدميْه مُنْتصباً ، والدم يشْخب من أوْداجه ، فتراجع الناس إلى الخلف مذعورين مبْهورين ، قد خرستْ ألسنتُهم عن الكلام ، وتحجّرت عيونهم فى مآقيهم ،

---

(١) فقلنا لقوم موسى : اضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة التى أمرهم الله بذبحها .

فسأله « موسى » – عليه السلام – :

– مَنِ الذى قَتَلك ؟

فأشار إلى ابن أخيه – الجانى – من غيْر أن ينطق بكلمة ، ثم سقط ميتاً ...

﴿ كذلك يُحْيى الله الموْتى ... ﴾

وأيْضاً :

هو ﴿ مُخْرِجٌ ماكُنْتُم تكْتُمون ﴾

ويُسْدلُ السّتار ...

بنىّ العزيز :

تذكر – ولاشك – أن سَيِّدَنا « إبراهيم » – عليه السلام – قد سأل ربَّه : ﴿ **قال : ربِّ أرنى كيْف تُحْيى الموْتى** ﴾ فأجابه الله تعالى : ﴿ **أوَ لمْ تُؤْمن !؟** ﴾ فقال « إبراهيم » – عليه السلام – : ﴿ **بلىٰ ولكن لِيَطمئِنَّ قَلْبى** ﴾

فالمرحلة التى مرَّ بها سيدنا « إبراهيم » – عليه السلام – يتواصل فيها الإيمان بالاطمئنان ...

أما بنو إسرائيل ، فعلى الرَّغم من كُلّ ماعايشهم فيه نبيُّهم « موسى » – عليه السلام – ، فى عقولهم ونفوسهم وواقع حياتهم

المأساوىّ ، وخلاصهم من ذُلّ السُّخْرة ، ونجاتهم من بطش « فرعون » ؛ وما قَدَّمه لهمْ « موسى » – عليه السلام – من آياتٍ باهراتٍ معجزات ، دالّة على صِدْق نبوّته ورسالته ... ،

على الرَّغم من كل ذلك فقد ظلُّوا فى شكٍّ مريب ، يستأثر بقلوبهم شيطانُهُم ، ويزلْزل على الدّوام إيمانهم ...

فأراهم ربُّهم رَأْىَ العيْن كيْفَ يُحيى الموْتى .. !

ثُمّ إنّهم من موقع الشّك والجنوح إلى الشّرْك كانوا يميلون إلى السلوك الحياتىّ المنحرف الضالّ ، ومن ذلك : كتْمانُهُم للحقّ ، وعزوفهم عن الصِّدْق .

فأَخْرَج الله تعالى ماكانوا يكْتمون فى أمر هذه الجريمة ... قسْراً وقهْراً ...

والله يَقول الحق ، ويهدى إلى سواء السبيل .

عزير آبن الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَوْ كَالَّذي مرَّ على قَرْيةٍ وَهيَ خاوية على عُرُوشها ، قال : أَنّىٰ يُحْيي هذه الله بَعْد موْتها ؟؟ فأماتهُ الله مائة عامٍ ثُمَّ بَعَثه قال : كَمْ لَبْثتَ !؟ قال : لبِثْتُ يَوْماً أَوْ بعضَ يَوْم ، قال : بَلْ لبِثْتَ مائة عامٍ . فَانْظُر إلى طعامِكَ وشرابك لم يَتسنَّه ، وانْظُر إلى حِمارك ... وَلِنَجْعَلَكَ آيةً للنّاس ، وانْظُر إلى العظام كيْف نُنْشِزُها ثم نَكْسوها لحْما ، فلمّا تبيّن لهُ قال : أَعْلم أنّ الله على كُلّ شيْءٍ قدير ﴾

[سورة البقرة : الآية : ٢٥٩]

﴿ وقالت اليهودُ : عُزَيْرٌ آبنُ الله ﴾ !!؟

[سورة التوبة : الآية : ٣٠]

(تمهيـد)

بنيَّ العـزيز :

إن نِسْبة الْوَلَدِ إلى الله تعالى باطلةٌ أَصْلاً وعَقلاً ...

داخلت النفوس الضعيفة والعقول المريضة من بابِ الوهْم ، وزلّة الشّيطان .. ، وهى – ولاشك – شِرْكٌ وكُفْر

ولقد عالج الأنبياء والمرْسلون – عليهم السلام – انحرافات الأقوام والأمم ، وتحصينهم بالعقيدة السليمة والمناهج القويمة إزاء مُغريات « إبليس » وضلالاتِهِ ، على مدى أجيالٍ وأجيال ...

وكان من الفتن الّتى لاقتْ رواجاً وتقبُّلاً ، فِتْنَةُ نِسبة الولد إلى الله تعالى ، حتى حَسَمها القرآن الكريم بالقوْل المفصل :

﴿ قُلْ هُوَ الله أحد . اللهُ الصَّمَد . لم يلدْ ولم يُولدْ . ولم يكُنْ لهُ كُفُواً أحدَ ﴾ ؛ حَسَمَها على صعيد العقل والمنطق

لكنّ الواقع التاريخىّ ، الماضى والمعاصر ، مايزال يَشْهد بأَنّ (الوهْم الإبليسىّ) مايزال مُعشّشاً فى كثيرٍ من العقول المريضة والقلوب الفارغة .

---

(١) بولس : (الرسول) كما يقال ، هو يهودىّ الأصل ، قال فى « عيسى » – عليه السلام – وفى النصرانية مالم يَقُلْهُ صاحبها ، ثم اعتُبر من بعْد مؤسساً للكنيسة وواضعاً لعقيدتها ، وراسماً لطقوسها .

ولعلَّ وهْم البنوَّة المدّعاة على لسانِ اليهود بأن « عُزيْراً » ابن الله !!!؟ هو الذى تسرَّب أيْضاً إلى المعتقد النّصْرانىّ ، فادعوا أن « المسيح » – عيسى – (عليه السلام) هو ابن الله أيْضاً !!!؟

وإليك قصةَ « عُزَيْر » على حقيقتها ، والله أعلم .

العبْد الصّالح

نشأ «عُزيْر بن جروة» فى بنى إسرائيل، يهودياً موسوياً صالحاً، عميق الإيمان ، ساميَ الخُلُق والخلال ؛ مشهوراً معروفا ... ، قد حفظ « التوراة » التى أُنزلت على « موسى » – عليه السلام – حِفظاً مُتْقناً ، فانطبعتْ حروفها على صفحة قلبه بمِدادٍ من الصدق واليقين .

ومما اشتهر به « عُزَيْر » أنّه كان حكيماً فى قوْله ومنطقه ، ومرْجعاً للناس يُعتمد عَلَيْه ويوثق به ، ويُفتى بالقوْل الفصْل .

الامتحـــان ...

وكان لِ « عُزَيْر » بُسْتانٌ من ثمارٍ وفاكهةٍ يَتَعَهَّده ويرعاه ، فَخَرج ذات يَوْم راكباً حماره قاصداً بُستانه ، ومعه سلّة فيها طعامه من عنبٍ وتينٍ وخُبْزٍ جاف ...

وكان وقْتُ خروجه فى الصباح الباكر قبل شروق الشمس ، فلما بَلَغَ المكان نزل وربط حماره إلى وَتِدٍ فى الأرض ، ثم شَرَع فى

الْعَمَل ... ، فلّما شعر بالجوع بعد الكدِّ والعرق ، أوى إلى ظِلّ شجرةٍ وأتى بالسَّلةِ التى فيها طعامه ... ، فاعْتَصَر بعض العنب فى قَصْعةٍ ، ثُمَّ فتّ الخبز الجاف فوقه ... وتركه قليلاً ليبتلّ فيأكُله ...

ثم آستلْقى ... ، رأْسُهُ إلى جِذْع الشجرة ورجلاهُ تستندانِ إلى الحائط الذى يُسَوِّر البُسْتان ...

وكان هذا السُّور جُزْءاً وبقيَةً من قَرْيةٍ خَرِبَةٍ قد تهدَّمتْ فيما مضى من الزمن ... ، جدران منازلها متداعية .. وسقوفها خاوية ... وعظامُ سكانها الأقدمين بارزة ... متناثرة فوق الأتربة ...

وشَدَّ المنظر « عُزَيْراً » ، واستحْوذ على فكره وقلْبه ، وحرَّك فيه بواعِثَ الإيمان بعظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته ، فقال فى اعجاب وإكبار :

﴿ أنّى يُحْيى هذه الله بَعْدَ مَوْتها !!! ﴾

قال ذلك متسائلاً عن الكيفيّة والصورة ، وليْس عن الحقيقة والأصل ، فقد كان « عُزَيْر » مؤمناً بأن الله – سبحانه – على كل شيءٍ قدير ...

التجربــة بالـذّات ...

فَأَرْسَلَ الله تعالى إليه « عزرائيل » – عليه السلام – [مَلَك الموْت] – فأماتَهُ مائة عام ... فى مقامِهِ ... ومكانِهِ ... وعلى نَفْس الصورة ...

ثُمَّ أَحْياه !!؟

﴿ ثُم بَعَثه ... ﴾

وخلال المائة عام ماتت أجيالٌ من بنى إسرائيل فى بَلَدِهِ، ووُلدتْ أجيال ، وتبدّلتْ أحوال ، وتغَيَّرت معالم ...

ولقد كان بعثُ « عُزَيْر » – كما حدّثتْنا روايات المؤرخين والحافظين[1] – على الكيفيَّة التى تتناسَبُ مع الإجابة على تساؤل الإعجاب ، يعنى : أَنْ يَعْقل « عُزَيْر » أَوَّلاً ليرى الأحداث وتلاحقها . إذ بعث الله تعالى إليه ملكاً حرَّك قَلْبَه وعينيْه ... ، ثُمَّ عظامه وكساها لَحْماً وَجِلْداً ، ثم كساه شَعْراً ... ثُمّ نفخ فيه الروح فاستوى جالِساً يَفْرُك عينيْه ويَتمطّى ...

فسأله الملَكُ :

﴿ كَمْ لَبِثتَ .. ؟ ﴾ فى مقامك هذا ... ؟

فَنَظَر « عُزَيْر » إلى ظِل الشّمْس وقال :

﴿ لَبِثْتُ يَوْماً ﴾

ثُمّ تأكّدَ من أنها لاتزال قائمة لم تمِلْ نحو الأُفُق ، فقال :

﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْم ﴾

---

(١) رواية إسحق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة عن كعب وسعيد وأبى عروبة عن قتادة عن الحسن ومقاتل وجويبرة عن الضحاك عن ابن عباس وعبدالله ابن اسماعيل السُّدى عن أبيه عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن جدّه وهْب بن مُنبّه (ابن كثير)

فقال له الْمَلك :

﴿ بَلْ لبثْتَ مائة عام ﴾ !

مائة عام !!؟ إنها رقْدة طويلة ، وزمن مديد ، تتبدّل فيه الأشياء وتَتَغَيَّر ،

فقال له الملَكُ :

﴿ فانْظُر إلى طعامكَ وشرابِكَ لم يَتَسَنَّهْ ... ﴾

وألقى « عُزَيْر » نظره فى قَصعتِهِ ، فإذا عصير العنب كما هُو ... وإذا الخبز الجاف مايزال جافاً لم يَبْتلّ ... ، لم يَفْسدا ولم يتغيّرا ... وهما على حالهما التى تركهما عليها .

وبدأ الإعجابُ فى قلْب « عُزَيْر » يسْمو ويرتَقى ، ويحلِّق ...

ولكن بقى شىْء !!

الحمـــار ...

فقال له الملك :

﴿ وانْظُر إلى حمارك ﴾

فالتفت « عُزَيْر » نحو مَرْبط الحمار ، فإذا هُو كُتْلَةٌ من عظام نخرةٍ ... ، فراح رأسه يتردَّدُ بَيْن القصْعة وما فيها من عصيرٍ وخُبْزٍ

جاف وبيْن رميم العظام ، ثم يرتفع ببصره إلى السَّماء فى خشوع وضراعة ...

فقال الملَك

– إنها إرادة الحقّ المبين :

﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آية ﴾ تدْفع باطل المبطلين ، وكُفْر الكافرين ، فيُؤْمِنُون بِرَبِّ العالمين

وليس هذا فقط ؛ بل :

﴿ وانْظُرْ إلى العِظام كيْف نُنْشزها ثُمّ نكْسوها لَحْماً ﴾

ومن ثم نادى الملَكُ عظام الحمار ، فأجابتْ وأقبلت من كل ناحية ، وتجمّعت هيكلاً عظميّاً ... ، ثُمّ زوّدها بالعروق والأعصاب ... ، ثُمّ كساها اللَّحم ... ، ثُمّ أنْبَت عليها الجلْد والشَّعْر ، ثُمّ نفخ فيها بأمْر الله ...

فقام الحمار رافعاً رأسهُ وأُذُنَيْه إلى السّماء ناهقاً .

وخرَّ « عُزَيْر » ساجداً ، وقد غابَ عَنْهُ الْمَلَك .

المواجهـــة ...

وقام « عُزَيْر » من مكانِهِ وبُستانِهِ فَركِبَ حماره وأتى محلَّتَهُ ، وسار فى الأسواق مُسْتَنْكِراً ومُسْتَنْكَراً ...

يَسْتَنْكر أردية الناس ووجوههم ومظاهر حياتهم ، ويَسْتنكرون مِنْه شكله وَهَيْأَتَهُ ... ، لقد كانت المغايرة بَيْن جيله وجيلهم مئة عام !؟

وانطلق – على وَهمٍ مِنْهُ – حتى أتى مَنْزِله ، فإذا بعجوزٍ عمياء مُقْعدة ، كانت أَمَةً لأَهْله ، فقال لها :

– ياهٰذه ... أهذا مَنْزِلُ « عُزَيْر » !؟

قالت :

– نعم ... هذا مَنْزِلُ « عزَيْر » ...

وبكتْ ، وانتحبَتْ ، وأردْفت :

– مارأيْتُ أحداً منذ عشرات السنين يذكُرُ « عزَيْراً » فقد نسيهُ الناس .

قال :

– فأنا – يا أَمةَ – الله « عُزير » ... ، قد أماتنى الله مائة عام ثُمّ بَعَثَنى .

فارتجفت العجوز على ضَعْفها ، وارتعدتْ فرائصها على نحولها ، وتَمَلْمَلَتْ فى مكانها وكأنها غاضبة من سُخْرية السائل بها ، ثم انفجرت قائلة :

– يا سبحان الله ... إن « عُزَيْراً » قد فقدْناه منذ مائة سنة ، ولم نسمع له بِذِكْر ، كفى هُزْءًا يا هذا !!

فرَدَّ « عُزَيْر » :

– بل إنى أنا « عُزَير » حقيقةً ، والله شهيدٌ على ما أقول .

الحقيقة الناصعة ...

سكتت العجوز بُرْهةً ، ثم قالتْ :

– لقد كان « عُزَيْر » رجُلاً مؤمناً صالحاً ، مُسْتجاب الدعوة ، يدعو للمريض ولصاحب البلاء فيشفى ... ، فإن كنتَ هو حقيقةً فادْعُ الله لي أن يَرُدَّ عليَّ بصرى حتى أراك ... ، وإن كُنْتَ « عُزَيْراً » عرفْتُك .

فدعا « عُزَيْر » ربَّه ، ومَسَحَ بِيَدِهِ على عينيْها ، فأبْصرت بإذْن الله وقُدْرته ، ثم أمْسَك بِيَدها وقال لها :

– قومى بإذْن الله ...

فأطْلَق الله تعالى رجْلَيْها فقامت صحيحةً فى عافية ، ونظرت إلى « عُزَيْر » وقالتْ : أشْهَدُ أنّك « عُزَيْر »

(الآيــة ...)

وانطلقت العجوز ومعها « عُزَيْر » إلى مَجْلس الناس ومُنْتَداهم ؛

وكان ابنٌ لِ « عُزَيْر » شيْخاً طاعناً فى السّنّ يتحلَّق حَوْله أبناؤه وحَفَدَتُهُ ، تجلِّلهُ سيماءُ المهابة والوقار ؛ فنادتْهُم العَجوز :

– هذا « عُزَيْر » قد جاءَكم ...

فٱنتفَضُوا فى ذُعْر ، ثُمَّ قالوا :

– ماذا تقولين أيَّتها العجوزُ الشَّمطاء الْخَرِفة ؟ وبماذا تهرفين؟

قالت :

– أَلَسْتُ مولاتكم العمياءَ المقْعدة !!؟

لقد دعا لي ربُّهُ فردَّ علىَّ بصرى ، وأَطْلَق رجلى وجئتُكُم أَسْعى .

فتوقفوا قليلاً عن تكذيبها،والحيْرة تخيِّم عليْهم ، ثُمَّ قام ابنه الشَّيْخ العجوز مُتَوَكِّئًا على عصاه واقترب منه وقال :

– لقد كان لأبى شامةٌ سوْداء بيْن كتِفَيْه ...

فكشف « عُزَيْر » عن كتِفَيْه فإذا الشامة فى مكانها ، وكأنَّها نُقْطة مسك يضُوعُ زكاءً ...

فضمهُ إليْه ، وقبَّل يَدَيْه .

وقالتْ طائِفَة من الحاضرين ، من بنى إسرائيل :

– لقد توارثنا عن آبائنا وأجدادنا أنَّه لم يكن فيهم من هو أَحْفظ للتوراةِ من « عُزَيْر » ، وبعْد السَّبْى الذى أصابنا وحرق « بُخْتنصّر » – الفارسىِّ البابلىِّ – لِلتوارة ، لم يَبْقَ منها شىْء إلا ماحفظت الرجال ، فإنْ كُنْتَ حقّاً « عُزَيْراً » فاكتُبْها لنا ... من جديد

وكان والدُ « عُزَيْر » فيما مضى قد دفَنَ التَّوْراة أيام « بُخْتَنصَّر » فى موْضعٍ لايعرفه أحدٌ غَيْر « عُزَيْر » ...

فانْطلق بالناسِ إلى ذلك المَوْضع ، وحَفَرَهُ واستخْرجَ التوراة ، ولكنها كانت متعفّنة ... متآكلة من الرطوبة ، قد دَرَسَتْ وزالتْ معظم كلماتها .

فجلس « عُزَيْر » فى ظِلّ شجرةٍ وحوَله بنو إسرائيل ... ، ثُمّ جلّى الله تعالى التوْراة لِ « عُزَيْر » كأنها صفحات مفتوحة ، فأملاها عليهم ، وجدَّدها لهم ...

وأقام فيهم زمناً حتى قَبَضَهُ الله تعالى إليه .

لكنَّ المتطرفين والمغالين من بنى إسرائيل ، والمشكّكين الضالّين ... أسبغُوا على شخصيّة « عُزَيْر » طابع الأسطورة والخرافة ، وكفروا بالله سُبْحانَه إذ قالوا :

﴿ عُزَيْرٌ ابنُ الله ﴾ ...

أما الحقيقة الدامغة التى لامراء فيها ولا جدال ، فهى قولُه سُبْحانه :

﴿ ولنَجْعَلَك آيةً لِلنّاس ﴾

وصَدَق الله العظيم .

أصحاب الأخدود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والسَّماءِ ذات البروج . والْيَوْم الموْعُود . وشاهِدٍ ومشهود . قُتِلَ أصْحابُ الأُخدود . النّارِ ذات الوَقُود . إذْ هُمْ عليها قُعُود . وهُم على مايفعلُونَ بالمؤْمنين شُهُود . وما نقَمُوا مِنْهم إلاّ أنْ يُؤْمنُوا بالله العزيز الحميد . الّذى لهُ مُلْكُ السماوات والأرْض والله على كل شيءٍ شهيد . إنَّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمناتِ ثم لمْ يتوبُوا فلهُمْ عذابُ جهنَّم ولهُم عذابُ الحريق . إنّ الذين آمنُوا وعَمِلُوا الصالحات لهُم جناتٌ تجْرى من تحْتِها الأنهار ذلك الفوْز الكبير ﴾

[سورة البروج : الآية : ١ – ١١]

محاصرة « نجْران » ...

واستعدَّ « ذو نواس » لتنفيذ تهديده ووعيده ، وعبَّأ جيْشاً ضخماً ، وغدا بِهِ إلى « نجران » وكأنه ذاهب إلى معركةٍ حربيةٍ فاصلة ... ، ولم يكُن أهل « نجران » إذْ ذاك على مُسْتوى المواجهة القتالية التى يتصوّرها « ذو نواس » ... ، ولكنه إنما خرج على هذه الصورة للإرهاب والتخويف ، وإظهار البأْس ...

فلّما بَلَغَ « نجران » أحاط بها من كُلّ مكان ، وسدَّ على الناس المنافذ ، وأذاع فى الناس أنَّه سوْف يحاسبهم حساباً عسيراً إن هُمْ لم يعودوا إلى اليهودية ويُقْلعوا عن (فِتْنة) الدين الجديد ...

وأعطاهم مُهْلةً أياماً معدودات !!!

الإصرار على الإيمان والثبات على العقيدة ...

وتشاور الناس ... ، لكنّ الروح الإيمانية فى القلوب كانت قد استحكمت وتغلْغلتْ فَرَدُّوا بالسَّلْب غيْر هيابين ولا وَجلين ...

فدخل « ذو نواس » الديار ... واحتلَّ قلْب المدينة ، وألقى جُنْدُه القبْض على رءوس المؤمنين وقادتهم ، ومن بيْنهم – بالطبع – « أفيميون » و « صالح » ...

ثم ماذا فعل .. ؟

أَمَرَ بشَقّ أُخدود فى الأَرْض ، واسع مُمْتدّ ... ، عميق الغوْر ... ، ثم أَمَر بإحضار ما أمكن من الحطب ... حتى تكوَّم فى قلْب الأخدود ... وأُضْرِمَتْ فيه النيران ... ، حتى احمرَّتْ والتهبت

وأخرجتْ ألْسنتها فى الجوّ وآنْعقدت من فوقها سحائب الدخان الأسود الكثيف تتصاعد إلى عنان السماء ...

وجلس « ذو نواس » وحاشيتُه فوق منصَّةٍ عالية ، بعيدةٍ عن حرارة اللّهب ، ليشْهد ما أُمِرَ بِهِ من ألوان التعذيب والفتنة ، ﴿ **والله على كُلِّ شيءٍ شهيد** ﴾

وسيقت زُمَرُ المؤمنين مُكبَّلين مقيدين ، وأُلْقُوا أفواجاً مُتتابعةً فى الأُخدود المتأجّج ... ،

ولم يُفْلح هذا العذابُ فى ردِّ أكثر الناس عن عقيدتهم وإيمانهم ، وثَبَتُوا على ولائهم للحقّ ، وتحَّملوا الموْت شهادة عَذْبة فى سبيل الله .

وبَعْدَ أن أدّى « ذُو نواسٍ » غَرَضَهُ مِنَ المؤْمنين عاد أدراجهُ إلى اليمن ؛

لكن الإنذار الإلهى والوعيد الربانى ما يزال معلّقا فوق رأسه ، عبْرةً لكلّ جبّارٍ عنيد :

﴿ **إن الّذين فَتَنُوا المؤمنين والمؤمِنَاتِ ثم لمْ يتوبُوا فلهم عذابُ جهنَّم ولهم عذاب الحريق** ﴾

ومايزال الوعْد الإلهىٰ بالفردوس الأعلى للمؤمنين هو غاية الغايات والهدف المنشُود :

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ... ذلك الفوْز الكبير !!!** ﴾

وصَدَق الله العظيم .

فهرس الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
مقدمـــة	٥
قابيل وهابيل	٧
موسى عليه السلام والرجل الصالح	١٩
أصحاب الكهف	٣٥
ذو القرنيْن	٤٧
قـارون	٥٧
ملكة سبأ	٧١
أصحاب الفيل	٨٣
هاروت وماروت	٩٥
صاحب الجنتين	١٠٣
ذو القلبين !!!	١٠٩
لقمان الحكيـم	١١٧
سـر القميص	١٢٥
أصحاب القرية	١٣٣
بقرة بنى إسرائيل	١٤٥
عزير آبن الله	١٥٧
أصحاب الأخدود	١٦٩